
صافى ناز كاظم
صورة صدام
دار
العين
للنشر

صورة صدام

صورة صدام

صافى ناز كاظم

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٢٤٥٨٠٩٥٥
www.elainpublishing.com

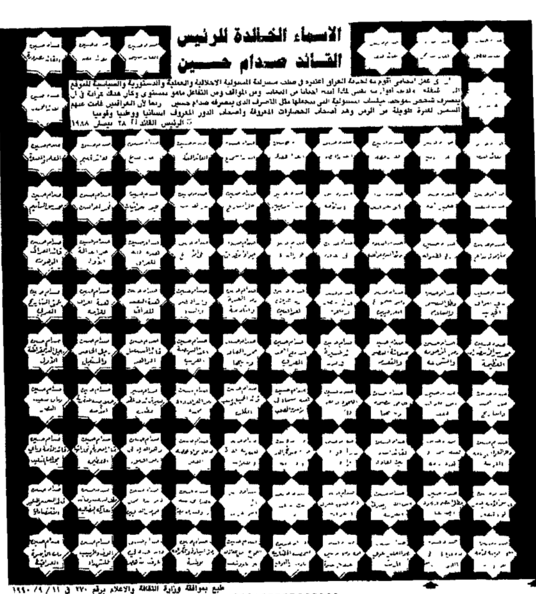
الغلاف: أحمد اللباد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٥٥٠٩ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولى: ISBN: 978-977-6231-01-6

صورة صدام

صافى ناز كاظم

دار العين للنشر



الأسماء الخالدة للرئيس القائد صدام حسين

الرئيس القائد ٢٨ نيسان ١٩٨٨

طبع بموافقة وزارة الثقافة والاعلام برقم ٢٧٠ في ١١/٩/١٩٩٠

هذه هي أسماء صدام حسين التي أراد أن يحاكي بها الأسماء " الحسنى " ! وقد طبعتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية في عهده برقم ٢٧٠ بتاريخ ١١/٩/ ١٩٩٠

المحتويات

احتلال صدام للعراق .. لم يكن سرا !

قال الشهيد سيد قطب في يوم من أيام تاريخنا : " ذهب الانجليز الحُمْر ، وجاء الانجليز السُمْر " . مثل هذا المعنى ردده الشاعر نجيب سرور في مسرحيته " آه يا ليل يا قمر " صائحاً : " اللي ياكل حقنا يبقى انجليزي حتى لو كان دمه مصري " ، وأضاف إلى هذه الحكمة مقولة أخرى في مسرحيته " ملك الشحاتين ": " لا أبو مطوة ينفع ولا أبو دراع".

مرت هذه الكلمات على خاطري ، مع الكثير غيرها ، وأنا أتابع ما يمكن تسميته الآن "المحنة العراقية" . ويمكن بتعديل طفيف ، لا أخرج به عن المعنى ، أن أحسم : " اللي يشرب دمنا يبقى أمريكاني حتى لو كان له وجه عربي " . وتكبر في الشاشة صورة العدو المحتل بائع العراق " صدام حسين " . نعم رحل الأميركي المحتل صاحب الوجه العربي غير مأسوف عليه ، وجاء مكانه المحتل الأميركي الأمريكي ، وما زلنا كالمستجير من الرمضاء بالنار . ولكن من المؤكد أن مقاومة عدو محتل أجنبي واضح ، أسهل كثيراً من مقاومة عدو محتل بلون الأرضية،

إذ لا يمكن الآن أن ينظر أحد إلى مقاومة الشعب العراقي للمحتل الأجنبي على أنها "مسألة داخلية" و " شأن وطني " . لا يمكن الآن أن يلتبس الأمر كما كان الحال عند البعض الذين كانوا يرون في حكم البعث الصدامي على مدار ٢٤ سنة " حكماً وطنياً " . والحقيقة أن هذا الالتباس كان مفتعلاً . فمنذ يوليو ١٩٧٩ ، حين تنازل أحمد حسن البكر لنائبه صدام حسين ليحل محله في الرئاسة ، دب الخوف في قلب العراق . وبمقتل القيادة الجماعية للحزب في أغسطس ١٩٧٩ وانفراد صدام بالسلطة ، أدرك الجميع أنهم قد انتقلوا من نظام حكم استبدادي شمولي له بعض وعوده الإيجابية ، إلى اجتياح عدواني يحتل العراق ، وأن أخذ هذا العدو المحتل لون الأرض ، بملامحه العراقية ولكنته العربية ، حين تربع صدام حسين على جسد العراق بمسئوليات المعتمد الأميركي الحاكم باسم المصالح الأمريكية .

كل العراق كان يعرف ، منذ اللحظة الأولى لتولي صدام حسين مقاليد حكم العراق ، أنه قد وقع في أيد أجنبية . كل العراق كان يعرف ، وعلى رأسه حزب البعث نفسه من أعلى قياداته إلى أدنى كوادره ، حين أصبح الشعب العراقي مجبراً على الاختيار القسري بين الانتماء إلى الحزب أو " الاعداااام م م م " . كنت وقتها في العراق منذ سبتمبر ١٩٧٥ أعمل مدرسة لمادة المسرحية في كلية آداب المستنصرية ، قسم اللغة الإنجليزية ، أدرس للفصول الصباحية والمسائية ، من الصف الثاني إلى الصف الرابع النهائي ، وكان من بينها صف مسائي خاص

بالعسكريين الحزبيين ، في قائمة طلابه " عدنان خير الله طلفاح " الذي لم أره قط ، كنت أقرأ الأسماء لأثبت الحاضر والغائب وأقــول : " الطالــب عدنان خير الله طلفاح " لا يحضر البتة ، فتسري همهمة من الضحك بين الجالسين لأني لم أكن أعلم أنه ابن خال صدام وشقيق زوجته . حين بدأنا العام الدراسي ٧٩ – ١٩٨٠ ، في ظل صدام رأيــت العجــب . تــأتيني الطالبة النجيبة ترتجف مثل ورقة في مهب عاصــفة . " ســت ، اتحــاد الطلبة استدعاني ، لابد من الانــضمام للحــزب أو الاعــدام ... ســت ، المشكلة ليست إعدامي وحدي " .. ست ، يعــدمون الأســرة بأكملهــا... الانضمام للحزب حرام في عقيدتي ... ماذا أفعل ؟ " . كانت تطلب منــي فتوى ، أجبتها: " ألست مجبرة وقلبك مطمئن بالإيمان ؟ " . كــان وجــه سهيلة يشحب كل يوم حتى صارت شبحاً ، تقابلني وتضع في يدي ورقــة في تستر ، أقرأها : " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة " . ثم تختفي سهيلة . طلبوا منها تقارير تفــصيلية عــن الأهــل والأقــارب والجيران و... لا تحتمل ، وتمر بجواري فتاة مسرعة هامسة : " سهيلة نالت شرف الشهادة ". كل صباح أقرأ الأسماء لأثبت الحاضر والغائــب . كل يوم غائب جديد يضاف إلى قائمة الغائبين التي تزداد طولاً يوماً بعــد يوم : باسم ، عقيل ، علي ، طالب ، نسيم ، محمد ، محمــود ، أحمــد ، هناء ، رعد ، جابر ، جميلة ... إلى ما لا نهاية له في أسماء المسلمين . وتزداد الهفهفات المسرعة بالهمس: " نال شرف الشهادة .. نالت شرف الشهادة " . يقابلني الطالب الفلسطيني عند بوابــة الجامعــة ، كأنــه لا

يخاطبني ، يبتسم في مداراة : " الاعدامات شئ بيخوّف .." ، مثل وحش السلعوة المسعور ، المنقض من كل اتجاه ، بلا منطق ، ومن دون توقع. أصبح الخوف وباء يتحول الطيبون تحت وطأته إلى قتلة يمارسون الذبح هرباً من أن يُذبحوا ، ولكن لا مهرب حتى لهؤلاء . يأتيني " طالب " – من صف العسكريين الحزبيين – مثقلاً بالذنب ، عفواً مثقلاً بالجرائم ، ينظر إليّ في انكسار بعد محاضرة عن مسرحية شكسبير "ماكبث" يصف فيها أحد أبطالها أحوال بلاده تحت حكم السفاح قائلاً :

" وا أسفاه عليك أيها البلد المنكود ،
لم يعد بإمكانك التعرف على نفسك ،
لم يعد ممكناً أن نسميك أمّنا ،
بل قبرنا ، حيث لم يعد هناك
أحد نراه يبتسم ،
سوى الذي لا يدري شيئاً ،
حيث صارت التنهدات ، والتأوهات ،
والحشرجات أموراً غير ملحوظة ، لكثرتها ،
حيث أصبح الحزن العاصف أمراً عادياً
لم يعد أحد يسأل من الذي مات ،
فحياة الرجال الصالحين تنتهي
قبل أن تذبل الورود في قبعاتهم،
ويموتون قبل أن يصيبهم مرض " .

خافتاً يقول " الطالب " مازحاً : " بأي وقت مرّ شكسبير بالعراق ست ؟ " ، ثم يأتيني بعد غياب طويل : " سامحيني ست ، والله الشغل كثير .. هادول الملاعين جواسيس المجوس ما يريدون يتركون لي فرصة للدرس ، كل يوم وجبات إعدام لمئات وما يخلصون .. والله تعبنا ست ، حتى الحانوتي صار يتذمر .. " ، أنظر في هلع ، وينظر في انكسار ووجع، يريد أن يوصل إليّ الأخبار بأسلوب الشكوى ، وأفهم بالترجمة الفورية أن معنى كلامه هو :" يا سيدتي نحن قتلة نذبح ونقتل أهلنا وأبناء الوطن في مجازر جماعية .. " ، ثم يكمل في سخرية . " صرت مثل ماكبث ، ما أنام .. سليب نومور .. " ، بعدها يلتفت : " ادعي لي ست " ، فأقول : " اللهم ارزقه شرف الشهادة " ، فيهز رأسه في يأس : " وينها " ؟

كان الشعب العراقي يعرف أن الاعدامات الجماعية هذه صارت شيئاً اعتيادياً ، وروتيناً يومياً حتى أن الأسرة التي يتم اعتقال شاب من أبنائها تندهش لو عاد سليماً لأنها تحتسبه عند الله تعالى لحظة أن يذهب مع رجال الأمن . وكنت أسير في بغداد أكاد أشم الدم وأحس مذاقه حقيقة في حلقي وأنا أبلع ريقي . وعندما كلت الأجهزة المكلفة بالإعدام والدفن، وجدوا طريقة أوفر لهم في الجهد وهي دس نوع من سم الفئران في مشروب مصنوع من اللبن الزبادي (شراب عراقي يتناولونه دائماً خاصة في الصيف) يرغم من يتم اعتقاله ، بتهمة الإسلام أو التعاطف مع الثورة

الإسلامية – التي إندلعت في إيران فبراير (شباط) ١٩٧٩ – على شربه ثم يطلق سراحة ويعود إلى داره ليموت وتقع مسئولية دفنه على أهله .

بعد انتهاء العام الدراسي ٧٩ – ١٩٨٠ ، حزمت أمتعتي وقلت لعميد الكلية أنني ذاهبة لقضاء إجازتي الصيفية بالقاهرة . قال لي : " يعتقلوك في مصر " . قلت بسرعة : " عندكم مثل عراقي يقول اللي يشوف الموت يفرح بالسخونة " . أدار وجهه وقال : " في أمان الله " . عدت إلى القاهرة في ٢٩ / ٦ / ١٩٨٠ وأنا مطلوبة على قائمة المدعي الاشتراكي بسبب معارضتي لاتفاقيات كامب ديفيد ، ومفصولة من عملي في دار " الهلال " بقرار من أمينة السعيد في ١١ / ١١ / ١٩٧٩ ، ومع ذلك قلت لمن استقبلني في المطار : " أحن شوقاً لمعتقل القناطر للنساء " الذي استقبلني فاتحاً ذراعيه .

هذا كلام لم أنتظر حتى أقوله اليوم فقط ، فلقد كتبت تفاصيله شهادة لوجه الله في كراسة بتاريخ ١ / ٣ / ١٩٨١م ، الموافق ٢٤ ربيع الثاني ١٤٠١هـ ، ولم أجد ناشراً يطبعها لي سوى دار نشر أوبن برس **Open press** في لندن ، وهي أيضاً التي تفضلت بتوزيعها لتشفي صدور قوم مؤمنين وتذهب غيظ قلوبهم ، تحت عنوان " يوميات بغداد " . وهكذا ، لم يكن احتلال صدام حسين للعراق سراً على أحد ، وليست هناك دهشة أن يقوم بتسليم بلاد ما بين النهرين لأولياء نعمته وأعوان جرائمه : الأمريكان لتكون هذه الخطوة منه : " أم الجرائم " .

شهادة لم أكتمها ، حتى لا يأثم قلبي

في شهر إبريل ١٩٨٠ وصلت إلى قراري الحاسم بترك عراق البعث الصدامي ، تضامناً مع الشعب العراقي ، حيث كنت قد وصلت إلى بغداد في سبتمبر ١٩٧٥ لأعمل مدرسة لمادة المسرحية بكلية آداب الجامعة المستنصرية ، قسم اللغة الإنجليزية ، وقد غادرت العراق نهائياً في ٢٩ / ٦ / ١٩٨٠ لأصل القاهرة وأنا على قائمة المدعي الاشتراكي المطلوبين للاعتقال بسبب معارضتي لاتفاقيات كامب ديفيد . كان قرار الرحيل يحاصرني منذ انفراد صدام حسين بالسلطة في يوليو ١٩٧٩ وبعد إعدامه كل رفاقه في القيادة الجماعية . كانت التراكمات كثيرة مكثفة منهمرة كالمطر النجس ، لكن الحدث المباشر كان إعدام الإمام الشهيد العلامة محمد باقر الصدر ، وشقيقته الأديبة المجاهدة الآنسة آمنة بنت الهدى ، في ٨ إبريل ١٩٨٠ . كان الحدث قد رددته الأفواه البغدادية في لمح البصر آخذاً أشكالاً عديدة من الروايات ، فمن قائل أن الإمام وشقيقته وأمه وأولاده قد تمت إبادتهم جميعاً رمياً بالرصاص ، إلى قائل بأن بيتهم في النجف الأشرف قد حفر حوله خندق غائر يكفل الحصار

التام لمنزل الإمام حيث تم نقلهم ليلاً إلى بغداد ومن ثم إلى حيث نفذ الإعدام . ولكن الرواية التي تأكدت هي أن الإمام محمد باقر الصدر ، مؤلف " البنك اللاربوي " و" اقتصادنا " و" فلسفتنا " والعديد الكثير من عيون الفقه والعلم ، قد تم استدعاؤه لمقابلة صدام حسين الذي ساومه بين القتل أو إدانة الثورة الإسلامية الشعبية ، التي قادها الإمام الخميني على أرض إيران فبراير ١٩٧٩ ، ولم يتردد محمد باقر الصدر في اختيار الموت ، الذي كان قد توضأ استعداداً له قبل تركه بيته مصاحباً رجال الأمن . وسأله صدام : أي أسلوب من القتل تريد ؟ فقال الإمام : أن أُذبح كما ذبح الحسين ، ولكن صدام أمر بأن يموت رمياً بالرصاص ، فخلع الإمام الجليل عمامته السوداء مجابهاً رصاص الجلاد المحترف ، لكن يد الجلاد اهتزت من الرهبة ، فتم تكليف جلاد ثان فلم يستطع ، مما اضطر صدام إلى أن ينهرهما – أو لعله قتلهما – ويقوم هو بنفسه بإطلاق الرصاص وقتل الإمام الشهيد . بعد يومين استدعيت الآنسة آمنة الصدر بنت الهدى ، شقيقة الإمام وتلميذته ، بحجة أن شقيقها يريدها ، وتم إعدامها بعد إجراءات تنكيل وحشية جعلتهم لا يسلمون جثتها لأهلها رضي الله عنها . وتم التكتم الشديد على هذه الأخبار حتى اعترفت بها السلطة بعد أيام على شكل خبر نشرته مجلة الوطن العربي عدد ١٩٨٠/٤/١٨ – إن لم تخنّي الذاكرة – يروي باختصار إعدام الإمام محمد باقر الصدر بعد ثبوت اشتراكه في مؤامرة ضد العراق . لكن السلطة الصدامية ظلت متهيبة عاجزة عن مواجهة الشعب العراقي بنشر

الخبر في صحفها المحلية ، وإن رددت في صفوفها اسم الإمـــام الـــشهيد مسبوقاً بـــ " العميل المشبوه " . وكان هذا الجرم الفـــادح هـــو مقدمـــة للإجراءات التي بدأ بها صدام حربه ضد الشعب العراقي بالقتل الجمـــاعي للعلماء والفقهاء والشباب والشابات الذين يساور النظام الصدامي الـــشك في ولائهم ، مع الترويع بالطرد والتشريد والتشتيت .

***

عندما وصلت بغـــداد فـــي ســـبتمبر ١٩٧٥ ، لأتـــسلم عملـــي بالجامعة، كانت ما زالت في مهرجانات تمجيد وتفخيم " النـــصر " الـــذي أحرزه العراق بتوقيع اتفاقية الصلح التي تمت في الجزائر بـــين العـــراق وإيران الشاه . وكان الانطباع العام الذي شعرت به أن البلد ينعم بالهدوء والأمن والثراء تحت حكم مستقر منذ ١٩٦٨ . ورغم القبضة الحديديـــة التي كنت أحس وطأتها على وجوه الناس ، البعثيين وغير البعثيين كافة، إلا أن الأشياء كانت في عمومها تحمل قسمات الرغبات المخلـــصة فـــي إدخال الطمأنينة على قلب الشعب العراقي ومسح ذكرياته الـــسوداء عـــن المذابح القديمة والويلات التي صاحبت الصراع بين حكـــم عبـــد الكـــريم قاسم، وسيطرة الحزب الشيوعي من خلاله ، وبين حزب البعث والمجازر التي وقعت بسبب ذلك الصراع وكبدت الفريقين خسائر دامية في الأرواح وحسرات وأحقاداً غائرة في القلوب .

كان الوعد الذي يحمله الحكم البعثي تحت رئاسة أحمـــد حـــسن البكر هو أن يحقق للشعب العراقي ، إلى جوار الطمأنينة والرغد والهناء

المعيشي ، قيادة " الأمة العربية " لاستعادة فلسطين وتحقيق وحدة الوطن العربي . وكان الدور الجديد الذي أخذه الدموي القديم، أحمد حسن البكر، هو دور " الأب " القائد الحنون فسيح الصدر ، كبير القلب ، المتجاوز والمتفهم لأخطاء البشر واختلافاتهم ، وكان صدام حسين نائبه القوي – في الثامنة والثلاثين من عمره – يأخذ دور ابنه المطيع ، المتشدد في الحق ، المفتش عن الأخطاء التي تعوق الإنتاج المرجو لعراق قائد ، الذي قد يتهاون مع خطأ غير الحزبي لكنه لا يتهاون أبداً مع بعثي يخطئ، لأن البعثي هو الكادر النموذجي الذي على عاتقه يقع بناء " الدولة النموذج " – (وكان بعض المشاغبين يمزحون ويقولون " الدولة الفالوذج ") – كنت ألاحظ تشابهاً لا يغيب عن العين بين نغمة وطقس الحياة في مصر تحت الحكم الناصري في الستينيات ، قبل هزيمة ١٩٦٧/٦/٥ ، وبين نغمة وطقس الحياة في العراق في سنواتها تلك : ١٩٧٥ ، ١٩٧٦، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، باستثناء تميز به الحكم البعثي وقتها أن الغناء والتمجيد كان للحزب وباسم الحزب ، بينما كان الغناء والتمجيد في مصر لعبد الناصر ولاسم عبد الناصر ، لكن التشابه فيما عدا ذلك كاد أن يكون متطابقاً خاصة في مرض الفجوة الواقعة بين القول والفعل ، التي لم تفلح الشقشقات والطقطقات والرطانة السياسية المطلة علينا من الإذاعة والتليفزيون والصحافة أن تمحوها أو تخفيها حتى عن الأبله والمعتوه ، ومع ذلك كان هناك شكل من الاسترخاء الذهني استحب الشعب أن يستسلم له بإغماض العين عن الكثير راضياً بحصيلته من

الهدوء النسبي والطمأنينة – بعض الشئ ، بديلاً عن لجج الدماء التي سبح فيها طويلاً ولا يتمنى العودة إليها . وجاءت زيارة السادات للقدس في ١٩ / ١١ / ١٩٧٧ ، فرصة مواتية لنظام الحكم العراقي يشد إليهما ويمتص بها ما قد يكون في صدر الشعب العراقي من غضب ورغبة متطلعة للشجب والإدانة والاحتجاج . وفعلاً نجحت زيارة السادات للقدس وصلحه مع الكيان الصهيوني في أن تعطي الفرصة لكي يضع النظام البعثي العراقي على صدره أوسمة الشجاعة والعفة والكرامة والعشق الأبدي لفلسطين . لكن شاء الله ألا يستمر ذلك الخداع طويلاً ، فما أن جاء عام ١٩٧٨ حتى تصاعد الانفجار الفوار المستمر لغضب الشعب الإيراني الذي توج بالنصر عندما خرج الشاه وسقطت حكومة بختيار العلمانية والمعادية للعرب ، والمتوددة للكيان الصهيوني ، وعاد الإمام الخميني في ١١ فبراير ١٩٧٩ من منفاه الترانزيت في باريس لبلاده الذي اضطر إليه عندما طلبت منه حكومة البعث ، بضغط من الشاه ، أن يكف عن العمل السياسي أو يترك العراق ، الذي عاش فيه ١٦ سنة ، فتركه في شهر أكتوبر ١٩٧٨ ، والخجل يتصبب عرقاً خائباً على جبين الشعب العراقي ، الذي أفهموه ، عن طريق الترديد المستمر للشعارات الهواء، أن عراق البعث قلعة الثوار ومأوى مناضلي العالم وحامية حمى الثورات الشعبية على مدار الكرة الأرضية . وبينما كان العالم أجمع يرقب اشتعال الإجماع الشعبي في إيران ضد الشاه ونظامه ورموزه على مدار عام ١٩٧٨ ، كان الشعب العراقي يرقب أشياء مريبة تحدث في بلاده

بعضها مستور وبعضها يطل من شاشة التليفزيون : تهوين لما يحدث في الشارع الإيراني ، وحصار أصم لأخباره المتصاعدة في أسلاك وبرقيات وكالات الأنباء التي تجوب العالم ، مضافاً إلى ذلك الدعوة التي وجهت إلى فرقة ضخمة من فناني الإعلام الشاهنشاهي لإحياء حفلات تموز / يوليو ١٩٧٨ ، ذكرى قيام ثورة الشعب العراقي ١٩٥٨ ! وشاهد الشعب العراقي الاحتفال الثوري لذكرى قيام الثورة من قبل نظام " الدولة النموذج " ، " جوجوش " المغنية والراقصة الشاهنشاهية تغني ثملة منطلقة ، عبر شاشات التلفزيون في عقر دار الشعب العراقي المحافظ ، تؤدي من الحركات الماجنة ما شاءت ، فاقدة تماماً لكل ما يمكن أن يعقلها من رباط أو ضابط أيا كانت نزعته ، وتوالى بعدها ، في سهرة استمرت إلى الصباح ، رفيقاتها ورفاقها السائرون على نهجها ، وكبار مسئولي الدولة " النموذج " فاغرين الأفواه والعيون انبهاراً بالفن الفارسي الذي تنصل تماما من إسلاميته ولحق ، بجدارة ، بركب الدعارة العالمية . ولم يكتف التليفزيون بوخز تلك الليلة الفاحشة في ضمير وعين وقلب الشعب العراقي فبادر ، إمعاناً في الفجاجة والنفاق الديني المثير للغثيان ، إلى بث مقابلة تليفزيونية مع " جوجوش " سألها فيها المذيع عن زيارتها للعتبات المقدسة ، ولم تنس جوجوش أن تسبل عينيها في ورع الشيطان قائلة بالعربية المكسرة إنها زارت " النجف الأشرف " و" كربلاء " وقرأت الفاتحة للإمام علي والإمام الحسين وأبي الفضل العباس!

كل ذلك كان يبث من التليفزيون العراقـي والخطـوات تتقـارب لإخراج الإمام الخميني من العراق ، فلم يكن لنظام حكم اختار "جوجوش" أن يصبر أو يتحمل تنفس آية الله – (قال لي وقتها تلميذ لي أنـه كـان ضمن الوفد البعثي ، ويتبع أفراده المذهب الجعفري ، الذي ذهب ليقنـع الإمام الخميني ، في داره بالنجف الأشرف ، بترك نـشاطه الـسياسي ، وكان رد الإمام بهدوء: اغربوا عني ، لا أراني الله وجوهكم ثانية أبـداً ! وأكد لي تلميذي أنه شعر ساعتها بالسعادة والفخر وهو يخرج مطـروداً مع وفده من دار الإمام الخميني !) – وبعد خروج الإمام الخمينـي مـن العراق بفترة وجيزة نشرت الصحف خبر مرور " الشاهبانو " فرح ديبـا ببغداد ولقائها مع صدام حسين ، ولم تنس هي الأخرى زيـارة العتبـات المقدسة ! وقتها تساءلت : ما الذي جاء بفرح ديبا وكيف يقابلها صـدام وهي عدوة الشعب الإيراني ، وسمعت " الحفلطة الجدلية " التـي كانـت تحفظ للجميع : " والله إن ما يحدث في إيران يخص إيران ونحن لا نتدخل في شئون إيران الداخلية ، وهناك اتفاقية صداقة تم توقيعها في الجزائـر عام ١٩٧٥ مع الشاه لتهدئة الجبهة الشرقية استعداداً للتفـرغ للجبهـة الغربية ، فلسطين ، القضية المركزية ، حيث أننا لا يجب أن ننجرف إلى الإغراءات أو الاستفزازات لفتح جبهتين معاً لأن هذا ليس فـي مـصلحة أحد إلا إسرائيل ومن ورائها الإمبريالية العالمية ... إلخ ... إلخ ... إلخ!" وكنت قد حضرت مناقشة بين شاب مصري من المـدافعين عـن صـلح السادات مع الكيان الصهيوني وبين شاب عراقي بعثي كان يكيل الـسباب

للسادات بدعوى استسلامه وخيانته ، فقال المصري : " يعني ما تتحمقش قوي كده ، طيب ما صدام عمل زي السادات بالضبط . صدام عقد صلحاً مع دولة الشاه المحتلة لأرض عراقية ، والسادات عقد صلحاً مع دولة محتلة لأرض عربية ... خالصين !" ، وهنا ثار العراقي البعثي ثورة كاد يفتك معها بالفتى المصري ، مردداً مقولة نهائية : " غير صحيح أن إيران تحتل أرضاً عراقية ، وغير صحيح أن صلح صدام مع الشاه كان به تنازلات عن جزر عربية ، وأن هذه الجزر ملكية شائعة ولا قيمة لها على الإطلاق!" وكرر الفتى البعثي أن البعث معاد للشاه ويتمنى سقوطه لأنه أحد رموز الرجعية في المنطقة ، ولأنه عدو خطر للنظام التقدمي العراقي ، لكن ما باليد حيلة ، وإنهم مضطرون إلى مهادنته حتى لا تستنفد قواهم العسكرية الضخمة الموفرة لصد العدوان الإسرائيلي وتحرير فلسطين !

لكن كل هذا الكلام لم يصمد طلاؤه الكاذب بعد اليوم الأول لوصول الإمام الخميني إلى أرض إيران وإعلان الجمهورية الإسلامية ، إذ أربد وجه النظام البعثي ، وبداية من شهر فبراير ١٩٧٩ كان على أمريكا أن تحرك خيوط عرائسها في تنسيق سريع .

***

كانت التلقائية المنطقية للشعب العراقي هي التعبير عن الفرح الغامر لنجاح الثورة الإسلامية وزوال الحكم الشاهنشاهي . وكان هناك نوع من الزهو لأن العراق ساهم في استضافة الإمام الخميني منذ عام

١٩٦٢ ، وإن كان هذا الزهو قد خالطه نوع من الأسف إذ لم يقدر أن تكون عودة الخميني إلى إيران منطلقة من العراق . وكان هذا الفرح يلوح على جماهير الشعب العراقي بمن فيهم من البعثيين .

– (كانت القاعدة الجماهيرية للحزب معظمها من العمال والبسطاء وهم أغلبية تتبع المذهب الجعفري ويتمركزون كطبقة فقيرة في حي شعبي كثيف السكان في بغداد اسمه حي الثورة ، وهو حي أنشئ مع ثورة عبد الكريم قاسم إلا أنه مهمل تماما ، فقير الخدمات ، تتحول طرقاته إلى أنهار ممتزج فيها ماء المطر مع ماء المجاري ، لا يجرؤ أحد غير سكانه على تحمل المرور عبره ولو اضطراراً ، وهو يتناقض تناقضاً مؤلماً في تخلفه وفقره مع الوجه الآخر السياحي السياسي لبغداد التي تعيش فيه صفوة الحزب مع الترف الجامع بين ترف العصر العباسي وترف العصر الأوروبي والأمريكي المعاصر . وكان يكفي في بغداد أن يشتم الإنسان بأنه من حي الثورة حتى يفهم أنه : فقير ومتخلف ومتوحش ولا يقرأ ولا يكتب ! ومع ذلك فكان الحي هو حي القاعدة الجماهيرية لحزب البعث !) – ولكن فرح الشعب العراقي ، بمن فيهم من القاعدة الجماهيرية لحزب البعث ، لم يلق تشجيعاً من السلطة الحاكمة ولا من القيادة الحزبية ، وساد التجهم والبرود أمام كل مظهر فرح شعبي بالثورة الإسلامية على أرض إيران، فالتقط الشعب على الفور الرسالة الضمنية في سلوك السلطة والحزب إزاء فرحهم ، وعرفوا أن بدهية الفرح من جانبهم هي بدهية لابد من أخذ التصريح بها قبل انتاهجها ،

وبميكانيكية الدفاع عن النفس التي تشربتها الشخصية العراقية عبر المذابح ، تم إخفاء الفرح فوراً ، وصار فرحاً تحت الأرض يتزامل السكنى مع المقت الذي تجدد للمجموعة الحاكمة وصفوة الحزب ، التي بدأت بدورها تستلهم من غريزتها في حب البقاء أساليبها المتنوعة لشغل الشعب وقاعدتها الحزبية عن فرحه ومقته . وكان لابد من إيجاد مناسبة تخلق ضجيجاً كافياً يسد مع الكبت كل منافذ الضوء الإسلامي المنهمر من إيران ما بعد الشاه . وهكذا ، وبين ليلة وضحاها ، خرجت القيادة السياسية للشعب العراقي بقرار الصلح مع حافظ الأسد ، عدوهم اللدود الذي لم يكفوا عن رجمه صباح مساء طيلة السنوات السابقة ، حتى اعتقد البعض أن الصلح مع الكيان الصهيوني أكثر احتمالاً من الصلح مع سوريا حافظ الأسد . وملأت الابتسامات شاشة التليفزيون مع الأحضان والتربيتات بين آت من سوريا وذاهب من العراق ، وخرجت الحكمة العربية مستمدة من التراث عن صلح العرب ، وسماحة العرب ، وعفو العرب ، وخصام الأشقاء الذي لا يخرج الظفر من اللحم . ووسط دهشة الشعب العراقي ، وقاعدة الحزب الشعبية، تم إعلان اتخاذ الخطوات لإجراء الوحدة بين النظامين ولحم الحزب المنشق إلى جسد واحد ، وخرجت الأحاديث بأنه كان على مؤتمر بغداد العظيم الذي وحّد العرب ، بمبادرة من العراق ، لاتخاذ موقف صامد إزاء خيانة السادات بأن يحل في أروقته النزاع السوري العراقي لأنه في النهاية اختلاف الود لا يفسد

للعرب قضية ، خاصة إذا كانت القضية المركزية للعرب ، ألا وهي فلسطيييين !

المهم أن الشعب العراقي وجد نفسه بالنهاية في حفلة زار ضخمة ذكرتني بحفلات الزار التي كان عبد الناصر يتفنن في إقامتها كلما داهمه مأزق – (مثل حفل زار بيان ٣٠مارس ١٩٦٨ التي أقامها ليهرب من مظاهرات الطلبة المحتجة على هزيمة ١٩٦٧ ، ومطالبة الشعب بالسلاح للدفاع عن أرضه) – فتحت الحدود بين سوريا والعراق لتزاور الشعبين ، والتهت سوق دمشق بمستهلكين يشترون بنهم ، والتهت سوق بغداد بالتحضير لعروض أزياء لعرض الفن البغدادي على أهل دمشق ، ومع الضجيج بدأت التحليلات الرافضة لنظام الحكومة الإسلامية تخرج متوارية ، ثم تسفر عن وجهها رويداً رويداً حتى ظهر الدق كاملاً على دماغ الشعب العراقي قائلاً في صراحة أن ثورة إيران ليست إسلامية ومع غياب القيادة السياسية المدنية المطلوبة لم يكن هناك مفر من سقوطها في أيدي رجال الدين . وكان هذا الإعلان بمثابة قرار تحريم وتجريم حب الدولة الإسلامية الناشئة ، وبدأ التلميح بكونها " أمريكية " وأن الإمام الخميني " عنصري " والدليل على عنصريته أنه يصر على الحديث باللغة الفارسية رغم أنه يجيد العربية !

ثم ظهر لنا فجأة البعث العراقي – دونا عن كل الناس – يأخذ على النظام الإيراني الإعدامات الكثيرة ، مشيداً بنزعته البعثية السلمية

المتسامحة العاطرة التي لا تقوى على رؤية الدماء ورؤية إنسان يعدم ، تلك النزعة البيضاء التي كانت تختفي سريعاً في شماتة واضحة كلما تم إغتيال واحد من علماء الدين المجاهدين الصابرين . وعندما أذاعت لندن أن الإمام الخميني حرّم الموسيقى ، إلتاث التليفزيون والراديو وسائر الإعلام العراقي بالموسيقى ونزلت الشعارات التي كادت تقرر أن العربي يمكن أن يتهاون في عرضه ولا يتهاون في قرار جائر يحرمه من الموسيقى . وأقيم " المؤتمر الدولي للموسيقى العربية " في بغداد بضجة وبذخ لم تعهدهما من قبل ، ولم ينقطع برنامج المنوعات الخاص بالأغنيات الأجنبية عن ولائه لـ"جوجوش" وبث أغنياتها مع رقصاتها الماجنة في وقت كان يحرم رفع صورة للخميني ، بل في وقت بدأت فيه نغمة بث العداء والكراهية للشعب الإيراني المسلم بدعوى أنه " فارسي مجوسي " ، ولكن صورة جوجوش وأغنياتها ظلت شاهداً على ولاء البعث العراقي وموضوعيته إزاء الموسيقى والغناء .

***

عندما حانت احتفالات تموز / يوليو ١٩٧٩ كانت أصابع أمريكا قد قررت خطوة حسم ضرورية لتحويل القيادة السياسية في العراق من قيادة جماعية ، يشترك فيها أحمد حسن البكر مع صدام حسين مع مجموعة من الوزراء وقيادات الحزب البارزين ، إلى قيادة فردية يمسك بها رجل واحد يمكن أن يسكب فيه خمر الغرور بيسر ويطيش معه عقله

وسلوكه وقراراته . وكانت قابليات صدام واستعداداته الفطريـــة ترشـــحه لأن يكون الفرد المختار الذي يتم على يديه:

١- التخلص من القيادة الجماعية التي قد تختلف في الرأي ولو على مستوى الولاء المذهبي .
٢- إيجاد مبرر لإلغاء موضوع الوحدة اللعبة بين سوريا والعراق .
٣- تطويق إرادة الشعب العراقي وإرهابه هـو والقاعـدة الـشعبية للحزب .
٤- غربلة صفوف الحزب وتصفيته من كل مـن يمكـن أن يكـون متعاطفاً مع الثورة الإسلامية مع إرهاب كل من راوده الحنـين إلى الإسلام وفكر في العودة إليه .
٥- إسقاط النظام الإسلامي في إيران قبل أن يترسخ وتنمو جذوره .
٦- إشعال حرب صيادة تسحب من إيران الثورة كل العتاد العسكري الذي كانت أمريكا قد تركته يتدفق على إيران الشاه لتحويلها إلى ثكنة عسكرية أمريكية رابضة للدفاع عـن إسـرائيل ومـصالح أمريكا في الخليج . حرب تؤكد أن الثروة العسكرية التي ورثتها إيران الثورة عن الشاه قد أحرقت وبددت تماماً .

وعلى ذلك ، فوجئ الشعب العراقي ، كما فوجئت القاعدة الجماهيرية للحزب ، في احتفالات تموز ١٩٧٩ بأحمد حسن البكر يعلن في خطابـه التقليدي تنازله عن الرئاسة لنائبه صدام حسين بحجة أنه صار مريـضاً وتكالبت عليه الكوارث ، وكان قد فقد زوجته ، وبعدها ابنه فـي حـادث

سيارة قتلته هو وزوجته وأطفاله وشقيقة زوجته ، وكانت الشائعات تدور في بغداد عن أن البكر صار أكثر التصاقاً بالدين وتعلقاً بزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء وسامراء وذلك بسبب رؤى وأحلام مزعجة تحاصره أثناء النوم ، وأنه يتوجس الشر دائماً ممن حوله ، حتى أنه أصر في مرة على أن يصاحب ابنه المسافر بالطائرة خوفاً عليه من تآمر لاغتياله .

لم يرحب العراقيون بقرار تنازل أحمد حسن البكر لصدام حسين إذ أحسوا أنهم بهذا سوف يدخلون مرحلة تكون القبضة الحديدية أشد قسوة وإحكاماً ، خاصة وأنه لن يكون هناك نائب قوي ند لصدام حسين كما كان صدام نائباً قوياً ندا للبكر ، مما جعل الكثيرين يقولون أن صدام كان هو الحاكم الفعلي من وراء الستار . لكن القيادة السياسية والواجهة الإعلامية طنطنت للقرار الديمقراطي – (كذا) – الذي تم اتخاذه، والذي إن دل على شئ فإنما يدل على الروح النقية الثورية التي تجعل القيادة السياسية ، ومجلس قيادة الثورة ، والقيادة القطرية للحزب ، قوة مترابطة على درجة من السمو والرفعة لا يصلها إلا المتصوفة والزهاد !

وانتهت الاحتفالات وصدام حسين بأناقته الباريسية وسيجاره الكوبي فرحاً سعيداً باسماً يستعرض جماهير الشعب الذي بدأ الشعراء والملحنون يحفظونه لأول مرة في تقاليد حكم البعث ، أناشيد تدور حول الفرد ، الفارس ، السوبر مان : صدام ، صدام ، صدام م م م م.. وكان

الغناء قبل ذلك يدور للحزب ، وللمجردات مثل الأمة العربيـــة والقوميـــة والاشتراكية .. ولكن ها هو صدام والناس ترقص وتغني لــه ولعيونــه الجميلة – (كذا !) – وهو يتبختر في حركاته بين مقلد لعبد الناصر ومقلد لنجوم السينما . وهكذا ملئ الكأس وأترع صدام بالغرور .

***

كان معروفاً قبل تولي صدام حسين رئاسة الجمهورية أن هناك أكثر من شخصية قوية ذات نفوذ في الحزب والقصر الجمهوري ، منهم : غانم عبد الجليل ، عدنان حسين ، محجوب، محمد عايش ، وآخرون لــم أعد أذكر أسماءهم رغم أنهم كانوا أسماء طنانة تدوي في الآذان صــباح مساء ، وبعض من هذه الأسماء كانت مقربة للبكر تنعم برضاه وتدليله ، وكانت تشعر أنها مساوية في القامة مع صدام . ولا ندري نحن هل صدر منهم شئ أخاف صدام وألقى التوجس في صدره منهم ، أم أنه – بــأمر من أمريكا – كان قد افترض احتمال معارضتهم له في أمــور مــستقبلية نوى القيام بها ، المهم أنه شرع في تنفيذ الخطة بإلغاء القيادة الجماعية حتى ولو كان هناك احتمال بأنها ستوافقه أو تهادنه ، علــى أســاس أن الاحتياط واجب كل لص وسفاح . ومع تباشــير شــهر أغــسطس / آب ١٩٧٩ ران الصمت الرهيب على الشعب العراقي وعلى قاعــدة الحــزب الجماهيرية وهم يستمعون إلى تفاصيل تقرأ عليهم من التليفزيــون ثــم تعرض عليهم سينمائياً عن خيانة مروعة تــم اكتــشافها فــي صــفوف المتصوفة والزهاد من كبار قيادة الحزب القطرية والقومية والحكومــة .

ووقف صدام في الفيلم السينمائي يبكي حزناً على انتهاك العذرية الحزبية، لكنه سرعان ما جفف دموعه بالمناديل الورقية وهو يجمع شتات عزيمته ليقول للشعب العراقي وللجماهير الحزبية مع ومضة خاطفة في عينيه النازيتين : "الذي يخون قومه ليس له منا إلا السيف "! وفي ٨ / ٨ / ١٩٧٩ تساقطت ٢١ رأساً تضمنت كل الرؤوس اللامعة في الحكم والحزب . وكان المفروض أن يكون من بين القتلى منيف الرزاز ، نائب الأمين العام للقيادة القومية للحزب ، وهو أردني ، لولا تدخل الملك حسين فاكتفى صدام بتحديد إقامته ثم سجنه مع إعدام كل مؤلفاته البعثية وتنظيراته الحزبية ، وأنزل صدام بديلا عنها مؤلفاته الشخصية وكتيباته تمهيداً لاستئثاره بلقب مفكر الحزب وفيلسوفه ومنظره الوحيد ! وكانت هذه المجزرة كافية لإرهاب المنتمين للحزب كافة وإلزامهم الأدب والطاعة الكاملة للمعلم الكبير صدام حسين الذي أثبت عملياً للجميع أن قلبه أشد قسوة من الحجارة وأنه إذا كان قد هان عليه قتل أصدقائه ورفاقه المقربين فإنه بهذا يرفع شعار حكمه الجديد : " من يقف في طريقي ليس له سوى الإبادة !" وأطبق الشعب العراقي وأفراد الحزب وجماهيره الفم ، لا أحد يقول ما في قلبه وعقله حتى ولو في غرفة نومه همساً في أذن زوجته .

***

وبداية من هذا التاريخ ٨ / ٨ / ١٩٧٩ ، سيطر صدام على كل مفاتيح السلطة ، الحكم والحزب بقيادتيه القطرية التي تتحكم في الحزبيين

العراقيين ، والقومية التي تتحكم في الحزبيين العرب من الأقطار الأخرى. وتحققت بهذا الأهداف الآنفة الذكر من رقم واحد إلى أربعة ، مما كان مطلوباً لأمريكا أن يتم عبر صدام ، تمهيداً لتحقيق المطلبين رقم خمسة وستة، وهو إسقاط الحكومة الإسلامية في إيران أو على الأقل حرق العتاد العسكري الذي ورثته عن الشاه ، مخافة أن يستخدم ضد إسرائيل ، التي كان الشاه قد تعهد بحمايتها ، خاصة بعد أن أسقطت إيران الثورة الإسلامية علم إسرائيل واحتفلت برفع علم فلسطين في سماء طهران في تناغم حركي شجي يفوق كل موسيقى البشر عذوبة وجمالاً .

لم يحزن الشعب العراقي على قتلى ٨ / ٨ / ١٩٧٩ لكنه توتر، كان لسان حاله هو أن الله قد جعل بأسهم بينهم وأن القاتل ليس بأفضل من المقتول والمقتول ليس بأفضل من القاتل ولكن التوتر كان ناشئاً من الإحساس بأن الدم قد عاد والمجازر قد بدأت من جديد .

وبدأت تنتشر في طرقات بغداد ظاهرة ثياب الحداد الأسود – غير العباءة السوداء الزي الشعبي للمرأة العراقية – وتزايدت متصاعدة مع الشهور المتتالية بعد أغسطس ، سبتمبر أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٩ ، ثم بداية من يناير ١٩٨٠ مستمرة حتى وصلت المذابح ذروتها اللامعقولة ٨ إبريل ١٩٨٠ حين تم إعدام الإمام محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى آمنة الصدر .

كنت طيلة تلك الشهور أسمع عن الإعدامات الجماعية التي كان يساق لها الشباب المسلم : ٣٠٠ ، ٤٠٠ شاب يومياً حتى قيل ، كما سبق وذكرت ، أن الحانوتي المكلف بدفن الجثث قد تذمر من كثرة العمل المطلوب منه ومن مساعديه إنجازه في الليلة الواحدة ! وكنت أسير في بغداد أكاد أشتم الدم وأحس مذاقه حقيقة في حلقي وأنا أبلع ريقي ، وعندما كلت الأجهزة المكلفة بالإعدام والدفن وجدوا طريقة أوفر لهم في الجهد وهي دس نوع من سم الفئران في مشروب مصنوع من اللبن الزبادي يرغم من يتم إعتقاله على شربه ثم يطلق سراحه ويعود إلى داره ليموت وتقع مسئولية دفنه على أهله . وكان شيئاً اعتيادياً وروتينياً يومياً ، حتى أن الأسرة التي يتم اعتقال شاب من أبنائها تندهش لو عاد سليماً لأنها تحتسبه عند الله تعالى لحظة ذهابه مع رجال الأمن . هذه الحرب الغادرة التي استحلها صدام وعبيده ضد الشعب العراقي جاءت بنتيجة عكسية لما أراد تحقيقه من خضوع كامل لطغيانه ، إذ أنها ، على غير ما توقع ، أذكت التأجج الثوري في صدور مجموعة من الشباب البعثي من حي الثورة الفقير ، والذي كان يقوم بحراسة مقر الحزب بالحي ، بإعلان التمرد على صدام وقيادة مظاهرة تهتف بسقوطه وبحياة الثورة الإسلامية . وجن جنون صدام وهرعت قوات الردع في بغداد كافة وأخمدت المظاهرة بإطلاق الرصاص على الجميع ، ثم بدأت عملية صارمة في تمشيط صفوف الحزب ، وابتدأ النشاط الإعدامي يمتد من إعدام الشباب المسلم المنتمي إلى حزب الدعوة – حقيقة أو إتهاماً – إلى

الشباب البعثي الذي دخل الحزب كاتما لإسلامه مكرهـا وقلبـه مطمـئن بالإيمـان .

ومع ذلك تنبه صدام – بمجهوده أو بتنبيه ممن يستعملوه – أن الإعدام والعين الحمراء يجب أن يتوازنا قليلاً مـع التـدليل والتلطـف ، وبدأت جولاته الشعبية في كل مناطق بغداد أولاً ثم من شمال العراق إلى جنوبه . وفي بغداد بدأ بزيارته لحي الثورة القابع في فقـره فـي طـي النسيان والإهمال الحكومي والحزبي وحُشِد الناس لاستقباله في ترحيـب شعبي ، ونقل لنا التليفزيون صدام وهو يقف ببذلته الباريـسية الأنيقـة وخطابته البطيئة الخنفاء يعترف لأهالي حي الثورة أنه قد تـم إهمـالهم لوقت طويل وأنهم ضربوا المثل في قوة الاحتمال والصبر على المكـاره وسوء الخدمات ، وقد آن الأوان لكي يلقوا الاهتمام اللائق بهم كجماهير كادحة ، لمصالحها قام الحزب وقامت الثورة . ولكنه تدارك قائلاً : ومـع ذلك فإن إهمال رصف طرقات حي الثورة ليس سببه كله تناسي مـصالح الجماهير الكادحة وخذلانها ، لا سمح الله ، ولكن هناك السبب الأهم وهو أن حي الثورة يقوم على بحيرة نفطية ضخمة أرغمتهم على تأجيل رصف وتمهيد الطرقات لكن ، " ما يخالف " ، منذ الآن وبالرغم من بحيرة النفط تحت التربة ، فإن الحكومة سوف تبدأ في رصف وتبليط الطرقات ، لأنـه إذا كان أهالي حي الثورة – الذي أسماه فيما بعد حي صدام ! مـستعدين للصبر أعواماً فإن صدام لم يعد يحتمل الصبر لهم أكثر ! وتطـرق فـي كلمته لجماهير حي الثورة عن النظام السوري الخائن العميـل ، مـشبهاً

حافظ الأسد بمعاوية الذي أراد الدنيا أما هو – صدام – فإنه كالإمام علي الذي لم يفكر إلا في مبادئه التي استشهد هو وابنه الحسين في سبيلها ومن أجلها ! وهنا أمسك الشعب العراقي أمعاءه خشية القئ من فجاجة الكذب ونتن النفاق ، لأنه كان يعرف أن سب معاوية على ملأ حي الثورة، الذي يتبع سكانه المذهب الجعفري ، ليس محبة لعلي أو للحسين، ولكن إخفاء لظالم أشد ظلماً وسفاهة من كل الظالمين الذين عرفهم تاريخ العراق . صارت مهرجانات الزيارات الصدامية لمناطق العراق . البرنامج الطويل الممل المقرر على مشاهدي التليفزيون ، يرونه يومياً في زياراته المفاجئة للبيوت وللمدارس ، حيث يميل على الأطفال مبتسماً متجسساً : " إيش دا يقول بابا ؟ إيش دا تقول ماما ؟ " – يعني ماذا يقول بابا وماذا تقول ماما – ليتحسس من براءة الأطفال وتلقائيتهم من يعاديه ومن ينتقده ! ومع هذه المهرجانات استمرت وجبات الإعدام في تزايد متصاعد ومتكثف ترهق القلب والصدر والضمير وتحيط النائم بكوابيس لا ينطبق معها جفن ، حتى جاء يوم أول إبريل ١٩٨٠ عندما تربص طالب بكلية العلوم بالجامعة المستنصرية عند مدخل الجامعة منتظراً مع تجمع طلابي لاستقبال الوزير طارق عزيز ومجموعة من زمرة صدام وعندما كان الوزير يتهيأ للنزول من سيارته ألقى الطالب قنبلة قاصداً قتل الوزير، انتقاماً للمجازر اليومية ، لكن الوزير لم يصب إلا بإصابة طفيفة وهلع كبير جعله يجري في طرقات الجامعة لا يلوي على شئ ، وقتل طالب وطالبة للأسف ، وتولى الحرس إطلاق الرصاص على الطالب فقتل بدوره على الفور ، وقال الناس إن صدام لما علم بالخبر أصدر أوامره لفرقة

من عساكره بالتوجه إلى بيت الطالب بشارع فلسطين القريب من الجامعة وتم نسفه بمن فيه من أهله وضيوفه وحيواناته ودواجنه . وكان هذا الحادث مبرراً لعهد قطعه صدام على نفسه في خطبة قالها في فناء الجامعة المستنصرية : " والله والله والله ، لأقتص لكل نقطة دم من الدماء الزكية التي سالت على أرض المستنصرية !" وبدأت مرحلة جديدة من الجنون المسعور .

***

كانت ذكرى تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي على الأبواب في ٧ إبريل ١٩٨٠ إذ تمر ٣٣ سنة على تأسيس ميشيل عفلق له ، عام ١٩٤٧ ، تحت شعارات كثيرة منها تحقيق الديمقراطية (!) وتقديم مفهوم جديد للقومية العربية التي قال عنها أنها قومية أممية لأنها منبعثة من الإسلام ، وهي غير القومية النازية لأنها لا تحدد العربي بدمائه وأصوله العرقية ولكنها تحدد العربي بأنه كل من سكن الوطن العربي وتكلم العربية وتوحد مع قضايا الوطن العربي ومصالحه ، ونادى باحترام حرية الفرد وإنسانيته .. إلخ . وكانت المفارقة مضحكة ومبكية معاً حين رأينا كيف توافق ، مع ذكري تأسيس هذه الشعارات ، العصف كلية بها ، بل ودهسها تماما تحت الأقدام ، وذلك خلال مهرجانات الاحتفالات الصاخبة بالذكرى !

كان الغرور قد بدأ يأكل جزءاً من دماغ صدام حسين وعقله ، وجاء الخوف من تصاعد الحركة الإسلامية ليأكل البقية الباقية . وبدأ

صدام يطل علينا من التليفزيون في أحوال مختلفة مختلطة تظهر – رغم تمسكه برطانة اللغة الحزبية – أن الرجل لم يعد يمثل حزباً أو فكراً – أياً ما كان – أو منهجاً . لقد صار سفاحاً ملتاثاً بالدماء وبعثرة اللحم البشري. كان واضحاً أن قنبلة أول إبريل ١٩٨٠ ، التي ألقاها الطالب أمام الجامعة المستنصرية ، شارة احتجاج ورفض لمجازر القتل الجماعي للشباب العراقي ، وكان الأولى بصدام – لو كانت لديه ذرة عقل أو مسئولية فكر حزبي – أن يلتقطها مؤشراً نقدياً يصلح به أحواله أو يتعلم منه درساً ولكن : " ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم " . وفتن صدام كما فتن من قبل نمروذ وفرعون وهامان وعبد الناصر ، ومقابل ذلك الحادث الذي جاء كرد فعل غير مدروس لمجازره اليومية ، بحيث يعد هو مسئولاً مسئولية أولى عن الأضرار التي نتجت والدماء التي سالت ، هجم صدام أول ما هجم مطيحاً برأس العلامة الإمام محمد باقر الصدر : واحد من ندرة علماء المسلمين في عصرنا الحديث ، وتذكرت على الفور ٢٠ / ٨ / ١٩٦٦ في مصر والهجمة الغاشمة التي هجمها عبد الناصر وخسرنا فيها وخسر العلم الإسلامي علامتنا الإمام النابغة الشهيد سيد قطب . هكذا في خلال أربعة عشر عاماً ينقض البوم والغربان لينتزعوا منا أروع ما أخرجته حدائقنا الحضارية من ثمار ويستبيحوا لأنفسهم ما استباحه التتر والمغول والفجار : ما هو أفحش من حرق الكتب والمكتبات ، ألا وهو حرق الأدمغة والذكاء الذي يخرج الكتب ويعمر الحضارات ويصنع النهضة . وكان قتل الإمام الصدر

يعني أنه لم يعد هناك حياء ، ولم تعد هناك حدود، ولم يعد هناك معقول ولا معقول ، ولم يعد هناك ما تتوقعه وما لا تتوقعه: كل حرمات الشعب العراقي مستباحة ومهتوكة تحت سنابك الغازي صدام! وخرجت فيالق العبيد تنفذ للغازي صدام أغرب عملية تفتيش يمكن أن تتم في أي بلد في دنيا الربع الأخير من القرن العشرين الميلادي ومشارف القرن الخامس عشر الإسلامي : لقد صدر الأمر من الغازي صدام بأن على الشعب العراقي أن يثبت أنه عراقي . وكيف يتم ذلك ؟ هل يكفي أن تبرز شهادة الميلاد التي تثبت أنك مولود بالعراق ؟ هل يكفي أن تبرز وثيقة جواز السفر العراقي ؟ هل يكفي أن تبرز سمات وجهك ولغة لسانك وواقع وجودك الفعلي أباً عن جد على ثرى الأرض العراقية التي يرقد فيها أمواتك ويولد عليها أولادك ؟ كلا ! إن صدام الغازي أكثر دقة في التمييز بين أبناء الشعب العراقي الواحد : أكثر دقة من هؤلاء الذين يحرقون ويطردون جنساً غير جنسهم وديناً غير دينهم . قال تلميذي ساخراً : " نحن ننفض البلاد مثل الزولية " ! – أي مثل السجادة – فصدام الذي فقد حياءه ، صار يصنع ما يشاء ، لقد صار مطلوباً من كل فرد من الشعب العراقي أن يحلل دمه ليثبت أنه على مر الدهور والقرون لم يختلط دمه بأي نقطة دم إيراني . وحتى إذا جاز هذا المستحيل فإنه كذلك لا يكفي ، إذ لابد أن يثبت أن " الجنسية العراقية " – التي لم يكن لها وجود قبل إصدار قانون الجنسية العراقي عام ١٩٣٢ على ما أذكر – جاءت لتحل محل ما كان يسمى " رعية عثمانية " وليس "تبعية إيرانية" . أما ما هو الفرق بين الذي كان " رعية عثمانية " والذي كان " تبعية إيرانية "، فلا

شئ في حقيقته الموضوعية الخاصة بعراقية العراقي : كل ما في الأمـر أن الشعب العراقي في غياب قانون الجنسية الخاص به أخـذت غالبيتـه سمة " الرعية العثمانية " مندرجة تحت دولة الخلافة العثمانية ، واختـار البعض الاندراج تحت " التبعية الإيرانية " مع حقيقتهم العربية العراقيـة التامة ، وكان بعضهم يجدها مهرباً من تجنيد أبنائه ، إلى أن جاء قانون الجنسية العراقي فدخل تحته الجميع " الرعية " و" التبعيـة " علـى حـد سواء . وبعد كل تلك السنوات بأحداثها العديدة ومتغيراتها التي لا حصر لها ، والتي مات فيها أصلاً من فضل " التبعية " على " الرعيـة " ومـن اختار " الرعية " بدلاً من " التبعية " ، وبعد أن ولد أكثر من جيل لا يحمل ولا يعرف إلا الجنسية العراقية ، يجئ صدام وقد تفتق ذهنه بإعلان حرب لا هوادة فيها على الشعب العراقي ، يتم بها طرد كل فرد يثبت أنه عراقي الجنسية من أصل " تبعية إيرانية " ، يخرجوه من داره بـالقوة بالركـل والضرب والإهانة هو وعائلته من الجد حتى الحفيد ، ويتم شحنهم فـي سيارات مكشوفة في ظلمة الليالي الباردة ثم يرمي بهم خارج الحدود في العراء الخلاء بلا غطاء أو طعام أو نقود. وتألفت دوريات في الـشوارع توقف المارة تسألهم عن هوياتهم ، يعتقل من يثبت أنه من أصل تبعية ، تمهيداً لشحنه وطرده . وصرت لا أسمع من العراقيين سوى الهمهمـات المرتبكة تتساءل في قلق : " رعية " أنت أم " تبعية " ؟ وبينما كان يـتم تهجير عشرات الألوف إلى الحدود الإيرانية بتهمة كونهم " تبعية إيرانية " ، كان الخوف أن تأتي الأهواء يوماً بتهجير الباقين من الشعب العراقـي إلى تركيا لأن أجدادهم حملوا سمة " رعية عثمانية " ! وهكذا وجد الشعب

العراقي نفسه تحت وابل من إجراءات إعدام جديدة لا تطاح فيها الرؤوس إلى الموت ولكن يطاح فيها البيت والعمل والمال وحق المواطنة والكيان الإنساني بأكمله : يطاح إلى خارج الحدود إلى مجهول لا يعلمه إلا الله ، وصدام أثناء هذا كله يطل علينا من التليفزيون يضحك ضحك دراكولا مصاص الدماء ، محيطاً نفسه في الصباح بمجاميع متواصلة من الأطفال يوزع عليهم اللعب والهدايا يلهو معهم ساعات طويلة في محاولة يائسة لجلب لمسات إنسانية تغطي أنيابه الزرقاء التي يقطر منها الدم ، أو ربما ليواصل تجسسه على ذويهم بلعبة : " إيش دا تقول ماما وإيش دا يقول بابا " ! أما في المساء فنراه في التليفزيون كذلك حيث تقام حفلات من الشعر الشعبي يتبارى فيها مجموعة من الأوغاد ، كأنهم انسلوا وجاءوا من شقوق للثعابين والعقارب ، يصرخون حتى الصباح بكلام برئ منه الشعر والشعب على حد سواء ، وصدام جالس بينهم سعيد يضحك – لا يزال – ضحكة دراكولا وهو يلوك سيجاره الكوبي كأنه يمصمص عظام جمجمة بشرية .

***

كانت الحكايات تجوب بغداد تلسع القلب :

* هذا البيت أخذت منه الأم لأنه ظهر أنها عراقية من أصل تبعية إيرانية ، أما أولادها فقد ظلوا مع الأب الذي ثبت أنه من أصل رعية عثمانية ، ولم يشفع للأم المطرودة وليدها الذي لا يزال يرضع منها .

* هذا البيت – كانوا جيراني في حي جميلة – به ثلاث شقيقات ليس لهن أحد ، كبراهن تقارب التسعين وصغراهن تقارب الثمانين ، سمعت صراخهن عندما داهمهن رجال الأمن في جوف الليل يصرخن : " وين نروح ... وين نروح " والرجال ، عبيد صدام يلطمنهن : "اخرسن كلاب أولاد كلاب .. جواسيس المجوس " !

* وهذه الدار ثبت أن الأب من أصل تبعية إيرانية فطرد هو وابنه الكبير أما أبناؤه ما بين ١٨ و٢٨ سنة فقد تم اعتقالهم بتهمة كونهم من أصل إيراني ولم يتم طردهم لأن الذهن الصدامي المريض تفتق عن وباء إضافي وهو : عدم طرد الشباب ما بين ١٨ و٢٨سنة خشية أن يتطوعوا في الجيش الإسلامي لمقاومته ، وبناء عليه يطرد جزء من العائلة ويسجن جزء آخر – يتم دس السم له أثناء الحبس – وتبقى الأم وحدها بالعراق أو تترك الدار خالية تنعي من بناها تمهيداً لاحتلالها واغتصابها من قبل عبيد صدام وزمرته .

* غالبية المسنين يموتون خلال الطريق إلى الحدود وعديد من النساء أجهضن من العناء والحزن .

* صرخات " وين نروح ... وين نروح " تتردد على لسان الجميع ، فالغالبية لا تعرف أحداً بإيران المرحلين إليها ولا تعرف حرفاً من اللغة الفارسية .

* أحد الرجال من المسئولين عن عملية الطرد والترحيل تـراه زوجته وهو يلطم جاره ويشده للترحيل فتصرخ به أمام الجميـع : " الله يشل يدك " ! وتنفجر مع الباكين واللاطمين !

* بعض المسئولين عـن عمليـة الطـرد والترحيـل يعللـون استعمالهم العنف والقسوة لأنهم إذا لم يفعلـوا ذلـك سـوف يتهمـون بالتواطؤ! – (بالتواطؤ مع الإنسانية ، ومع الشعب العراقي ؟) –

* واحد من حواة الكلام والرطانة الحزبية ينفي القول بأن الطرد والترحيل يشمل جميع "التبعية الإيرانية" ويقول : هذا غير صحيح ، لقـد تم استثناء المسيحي الذي من أصل تبعية إيرانيـة . وتـسأله : ولمـاذا اتصب الإجراء على المسلمين فقط ؟ فيقـول : بـالطبع لأن المـسيحي مضمون عدم تأييده للثورة الإسلامية ولأنه لا يمكن أن يكون مشاركا في حزب الدعوة الإسلامي أو أي نشاط إسلامي آخر – (هذا الكـلام لـيس خرافة ، لقد سمعته بلحم أذني ، وقائله كان يحضر للماجستير في القومية العربية !) – وهذا يعني أن كل تلك العقوبات ، من إعدام وسجن وطـرد وتشريد ، لم تكن توقع على أناس ارتكبوا أفعالاً تستحق العقوبة ، ولكنها توقع على مئات الآلاف من الشعب العراقي المسلم – بالذات – لأن هناك احتمال بأن " بعضهم " قد يرتكب في المستقبل هذه الأفعال التي تـستحق العقوبة !

أى شريعة هذه التي يطبقها صدام حسين وهو الذي كان يحسب أن يفتخر بجده حامورابي صاحب أول شريعة قانونية ألفها الإنسان من بنات أفكاره ؟

هذا التساؤل لم يطرحه واحد من الحواة الطبالين الزمارين في الصحافة والتليفزيون وأبواق الحزب ، لم يطرحه أحد ، ولو من باب حفظ اللياقة الجمالية لواجهة الحزب ووجه العقيدة العقائدية ! لم يتساءل أحد كيف يطرد المسلمون هكذا من ديارهم والدعوة كانت لا تزال مفتوحة – ومعلنة في الجرائد – لعودة يهود العراق الذين هربوا بإرادتهم إلى الكيان الصهيوني ليشاركوا في ذبح العرب ! وبديلاً عن هذا التساؤل ارتفعت عقيرة الحواة في أجهزة الإعلام بسب الخميني ونعته بـ " العنصرية " والطائفية والتخلف ، علاوة على التوضيح للشعب العراقي أن الإمام الخميني " جاهل بالإسلام " أما الفقيه العارف بالإسلام فهو الرفيق صدام حسين الذي جمع علماء الدين في البلاد ليعلمهم أن الإسلام لا علاقة له بشئون الحكم وأن الحكم لا علاقة له بالإسلام ، والعمائم المنكسة أمامه تجلس صامتة مستذلة بين شيخ فان وكهل وشاب ولا يفتح واحد فيهم فمه ليقرأ للسلطان الجائر من آيات الله الكريمة من سورة البقرة : "ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان.." .

***

بإجراءات الطرد هذه أصبح الموقف محرجاً لكثير من المصريين والعرب اللاجئين سياسياً إلى العراق ، أو الذين أقاموا للعمل به منذ

سنوات قبل مرحلة الحكم الصدامي ، لقد فتح الشعب العراقي أبوابه لهم حين كان مستقراً آمنا هو أولاً في دياره يملك أريحية استقبال واستيعاب الوافدين عليه من خارج العراق ليشاركوه العمل والقوت ، لكن كيف يتم ذلك وصاحب الدار واقع بين ذبح وسجن وطرد وقمع ، والذي أضاف إلى صعوبة الموقف أن صدام حسين ظل يردد : " المصريون ضيوفي " . قلت: لا والله لا أكون ضيفتك أبداً ، وكان لابد أن أحزم أمتعتي وأعود للقاهرة ، تضامناً مع الشعب العراقي وآلامه واحتجاجاً على السلطة الصدامية الغاشمة التي اختارت طريق الضلالة والظلمات وواصلت التوغل فيها : أوامر بمنع الطالبات من الزي الإسلامي ، مخبر في كل مسجد لمعرفة الحريصين على أداء الفروض ومراقبتهم ، الإرغام القسري للانتماء للحزب ، حتى يصل هذا الإرغام إلى خيار من اثنين : الانتماء للحزب أو الإعدام ، وفي إطار هذه الحرب الضروس ضد الشعب العراقي يشاء الله أن يفتن الظالم أكثر فيعلن صدام أمام الملأ العالمي في ٢٨ سبتمبر ١٩٨٠ عن " قادسيته " الآثمة لينقض على إيران بحجة تحرير الأرض العربية والدفاع عن عرب إقليم " عربستان " الذي ذبح وطرد وشرد بقية عائلاتهم المقيمة بالعراق بحجة أنهم من أصل إيراني . ويستمر في تنفيذ الخطوة السادسة التي أرادتها أمريكا وإسرائيل لسحب العتاد العسكري من إيران ، الذي كان قد تم تجهيز الحكم الشاهنشاهي به لضرب العرب وتمكين الكيان الصهيوني فوق رقابهم . ويتحول ، بعد أن أنهك الشعب العراقي ، إلى بقية العرب المقيمين بالعراق قابلين ضيافته رغم كل شئ ، ويطالبهم بثمن استضافته لهم وحمايتهم من بغض الشعب

العراقي فيجبرهم على الاشتراك في الحرب وإعلان تأييدهم لقادسيته ، وإلا فلهم الطرد بعد التعذيب والإذلال ، وتأتيني ، بعد وصولي للقاهرة ، رسالة من طالب مصري استطاع النجاة والرحيل إلى أوروبا يقول : " ..أخباري : حاولوا جرّي مع معظم أو كل الطلبة العرب إلى الاشتراك في الحرب ولكني رفضت ومعي طالب واحد أن نشترك ، فأخذونا يوم أول يناير ويوم ٣ يناير ١٩٨١ ، واستمرينا عندهم حتى يوم ٢٥ يناير وخلال تلك الفترة : ناكل ضرب ونشرب ضرب ونتعلم إن هتلر ما كانش الأستاذ.. لأ .. كان التلميذ لسابق عصره وأوانه قراقوش العراقي . واستمروا في كينا وتعذيبنا ثم رمونا رمية الكلاب على الحدود .. الحدود الأردنية ، فوقعنا مرة أخرى في أيدي المخابرات الأردنية ، وأيضاً قامت بالواجب إلى أن رمتنا خارج حدودها من حيث أكتب لك الآن .

لقد رفضت المشاركة في الحرب لأنني أعرف أنها حرب لذبح المسلمين في إيران ... وقراقوش العراقي لا يقبل سوى من يلعب معه في الماتش ضد إيران وإذا رفضت تحدث الطامة الكبرى وتجد نفسك في أقبية ومخابئ نسمع عنها في قصص العفاريت ... نسيت أقول : الناس الموجودة حالياً في بغداد من العرب والمصريين كلهم هتيفة من أول (....) لغاية (....) وكلهم مُنظّرين دلوقت لقادسية صدام ... ولكن معلهش يا زهر ! ...."

***

سأظل شاهدة لا تكتم الشهادة على جرائم صدام ضد الشعب العراقي ، تلك الجرائم التي لا تسقط بالتقادم ، والتي تقف في خندق واحد

مع جرائم الاحتلال الأجنبي للعراق التي يرتكبها جـورج دابليـو بـوش ورامسفيلد وجنودهما ، وأتساءل من يكون المسئول عن مصرع الطـائر الجميل ؟

الذي ينزع ريشه ومخالبه ويعجزه عن الطيران والـدفاع عـن النفس في الليلة الظلماء، أم الذي يرفع عليه الخنجر ويطعنه وهو مشلول مطروح على الأرض ؟

فكروا معي جيداً قبل الإجابة ، ولنتذكر من الأندلس " الإبـادة " قبل الموشحات والأمجاد .

(إنلاصِتْ) كما يقول أهل العراق !

تعبير عراقي جامع شامل أستحضره بقوة هذه الأيام ، وهو : " إنْلاَصِت " ! يقوله العراقيون عندما تتشابك الأمور ويختلط الحابل بالنابل ولا يبدو في المعضلة مجال لمعرفة الرأس من القدم . كل الناس تبدو متكلمة إلا صاحب المحنة . كل الناس مقترحة ، ومحللة ، وشارحة ، وقاطعة إلا الشعب العراقي ، الذي عانى من قبل ومن بعد . تتكرر كلمة " شعب موزاييك " ، فتقلب معدتي المغالطة التي صارت اللحن المميز لكل جالس قعر مجلس في ندوة تلفزيونية . لا أعترف بهذا التصنيف لأنه مناف تماماً لما شاهدته على أرض العراق . صحيح أن بالعراق "أصول" لأعراق مختلفة ، وهذا منطقي لبلد مَعْبَر لحضارات من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، لكن آلاف السنين من قبل ميلاد سيدنا المسيح ومن بعده ، كانت كافية لتمزج وتربط وتدمج كل الأنساب والأخلاط ، ليصبح على أرض الرافدين شعب واحد له سماته المشتركة الخاصة به سحنة وقلباً وقالباً ولهجة ومزاجاً ونوازع . صحيح هناك التركمان ، والأكراد ، والكلدان والآشور .. إلخ ، لكن كل هذا صار عربياً منذ زمن طويل . غير

صحيح أن حضرة " حزب البعث الاشتراكي " هو الذي اخترع للشعب العراقي هويته العربية وأجبره عليها ، بل لعل العكس هو الذي نتج ، الذي أساء لرابطة العروبة والعربية التي لمت شمل أهل العراق على مر العصور . العراقي الصابئي يفتخر أنه " أصل العروبة " بالعراق . والعراقي "الأرامي" و"السرياني" و"الكلداني" و"الأثوري" كلهم ، بمعتقداتهم كافة ، يؤكدون أنهم "جذر العروبة" المجذّر بالعراق مثل النخل . وكل مذاهب المسلمين بالعراق يعلن منتسبوها أنهم "أحفاد" محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحفاد " ابراهيم " صلى الله عليه وسلم ، الذي اسمانا المسلمين من قبل . ولا يكف الأستاذ الكردي ، عن تأكيد " وحدة الشعب العراقي " ويصر الطرف الآخر في الجدل – في واحد من البرامج الحوارية – على تفصيص البدن العراقي إلى أنف وفم وعين وذقن وذراع وساق وقدم . سبحان الله . بل ويمن على الأستاذ العراقي الكردي بأن " صدام حسين " هو " الوحيد " الذي أعطى الأكراد الحكم الذاتي ! ولا يملك الأستاذ المهذب أن يكمل : وما فائدة " حكم ذاتي " والعراق بأكمله في السلخانة ؟

ثم تأتي بعد " موزاييك " مقولة : " الأغلبية الشيعية " ! ألم يئن بعد أن نتقي الله ونتذكر من سورة الروم : " ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون " ؟ إن مصطلح " شيعة " و " سُنَّة " به مغالطة لفظية ، فكل المسلمين على سنة الله ورسوله ، ولا يمكن أن يكون هناك مسلم غير ذلك ، كل أهل الإسلام

" سُنّة " وتختلف الاجتهادات ، وكما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم : " اختلاف أمتي رحمة " ، وهذا ما يثبت لنا تماماً يوما بعد يوم . إذن فالمصطلح يكون : " مذاهب " ، وكلها " سُنّة " . وإذا كان هناك تقسيم " سياسي " قديم في زمن " الفتنة الكبرى " ، فلا يجوز لنا أن ننساق وراءه بحيث ننتزع من تعداد مسلمي العراق قسما ونعطيه نسبة ، وتلعبه الأهواء ورقة يستفيد منها المحتل الغريب . ويل لأمّة كل قبيلة فيها أمّة . يقف الشيخ في مسجد الأعظمية ويقول : " نحن أهل قبلة واحدة " ، ويقف الشيخ في الكاظمية ، وفي النجف ، وفي كربلاء ويقول : " نحن أهل قبلة واحدة " ، فما معنى اللت والعجن في حكاية "الأغلبية الشيعية" ؟

هذه الأظافر التي تبحث عن الجراح لتحكها حتى تدميها يجب أن تتطهر وتقلِّم نفسها . ولقد تعجبت وأنا أتذكر قول سيدنا الحسين ، قبل استشهاده في عاشوراء سنة ٦١هـ ، يستحلف زوجته الرباب وأخته زينب رضي الله عنهم أجمعين : " لا تُخمشن عليّ وجها ولا تشقن عليّ جيباً .. ويا أُخيّة اذكريني في نافلة الليل " ! فكيف عندما يسير موكب " التطبير " و"ضرب القامة" و"اللطم" يقول الناس : عادت " الحرية " لشيعة العراق بعد أن حرمهم منها صدام لسنوات ؟ أهذه هي " الحرية " التي كان منها " الحرمان " ؟ لا وعزة الله ! لم يستدع صدام حسين آية الله " محمد باقر الصدر " في إبريل عام ١٩٨٠ ليساومه على "حرية " اللطم، بل ساومه بين الإعدام أو إدانة الثورة الإسلامية ، التي قامت في إيران فبراير ١٩٧٩ ، ولم يتردد العلامة ، مؤلف " فلسفتنا " و"اقتصادنا"

و"البنك اللاربوي" وغيرها من كتب العلم والفقه الإسلامي ، في اختيار " الاستشهاد " الذي كان قد توضأ استعداداً له قبل أن يترك بيته مصاحباً رجال الأمن ، إلى لقاء " بائع العراق " الذي سأله : أي أسلوب من القتل تريد – (ديمقراطية!)– فقال الإمام : أن أذبح كما ذُبح الحسين .

لكن صدام أمر بأن يموت رمياً بالرصاص في ١٩٨٠/٤/٨ – (وفي ذكراه الثالثة والعشرين بالتمام كان سقوط نظام صدام حسين في ٢٠٠٣/٤/٨، ليلة إذاعة الأخبار على الملأ صباح ٢٠٠٣/٤/٩) – وبعد يومين استدعيت الآنسة آمنة بنت الهدى ، شقيقة الإمام الشهيد ، بحجة أن شقيقها يريدها حيث تم تنفيذ حكم الإعدام بها بعد إجراءات تنكيل وحشية جعلتهم يترددون في تسليم جثتها إلى أمها المكلولة ، ولم تكن المساومة مع الأديبةَ الشاعرة المجاهدة آمنة الصدر عن " حريتها " في خمش وجهها وشق جيبها ، وهي الداعية العالمة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب" . وإنني أذكر أن الإمام الخميني حرّم هذه الممارسات التي شاعت بين العامة ، وقال إن كل نقطة دم تسيل من مسلم لا تكون إلا في سبيل الله ودينه الحق .

الأعجب من كل ما سبق هو ذلك التأزم الذي يختنق به الكثير من المثقفين بسبب خشيتهم من قيام حكم إسلامي بالعراق ، ويسمونه " دولة دينية " وهو مصطلح مترجم عن دولة ثيوقراطية ولا نعرفه في إطار عقيدتنا ، لأن الحكم بقانون الله سبحانه وتعالى في الإسلام لا يعادله الحكم الكنسي الذي اشتكت منه أوروبا في القرون الوسطى . وقد قلت

مرة للدكتور لويس عوض لماذا علينا أن نسدد نحن فواتير أخطاء الحكم الكنسي " الثيوقراطي " في قرون أوربا الوسطى ؟ وإذا كانــت الخلافــة العثمانية قد ارتكبت الكثير من الأخطاء التي وصلت إلى مستوى الجــرائم في بعض أحوالها ، فإن النظم العلمانية التي ورثت الأرض من بعدها لــم تقصّر في المنافسة وتفوقت على العثمانيين بما لا يمكن إنكاره . ويأخــذ الغضب مأخذه من أحد الكتاب لأن – على حد قوله – " لــم يعــد علــى الشاشات سوى العباءات السوداء والعمــائم البيــضاء ، هــذه صــورة العراقيين الآن . لا عراقي يرتدي القميص والبنطلون فــي الغالــب ، ولا امرأة عراقية ترتدي الملابس الحديثة ، إما هي محجبــة ... أو ترتــدي العباءة السوداء المعبرة عن الانتماء الــديني ، اختــزال فــي الأشــكال والرموز القديمة ، في البداوة ، في أزمنة منقرضة ... " ، بذمتكم يا أهل الفهم والعقل هل سمعتم عن " انقراض " للعمامة وللعباءة السوداء فــي العراق رصده أحد أو تكهن بــ " إرهاصاته ؟" لماذا يكون ساري الهندية وعمامة الهندي من المسلّمات المقبولة والتي لم تنقص من قدر الــسيدة أنديرا غاندي ، عند مثل هذا الكاتب الغضبان ، ولم يرها معبرة عن رموز قديمة في أزمنة منقرضة ؟ أما المشغولية التي صار الكافة يقدحون فيها زناد فكرهم فهي : هل جاءت قوات التحالف بحجة تحرير العراق من أجل " النفط " أم من أجل شئ آخر ؟ هذا وهذه يقولان : من أجل النفط ! وهذا وهذه يقولان : لا ... ليس من أجل النفط ! ألا يكفي أنها جاءت لتسيطر ، ليقول كولن باول بلسان إدارته الأمريكية لحكام المنطقة : " اشــرب مــن

هذه القلة ولا تشرب من هذه القلّة ! " ألا يكفي أنها قوات تكبل المنطقة لتؤازر الكيان الصهيوني ، وتقول بالفم الوقح : شارون رجل سلام ، وكل فرق المقاومة الفلسطينية والعربية إرهابية ؟ ألا يكفي...؟ إنها جاءت يا سادة من أجل ما هو أغلى وأثمن من النفط ، جاءت لتسحب منا الروح المنتصرة ، لتحولنا إلى بجع مسحور مسلوب الإرادة .

وفوق كل هذا ينجعص ، من قدومه بصفته سفيراً سابقاً بالعراق، ليؤكد أن مقولة الحجاج بن يوسف الثقفي عن الرؤوس التي أينعت وحان قطافها وإنه لصاحبها ، مقولة صحيحة وأن العراق لا يناسبه سوى " الحجاج " أو " صدام حسين " لأنه بلد " موزاييك " ولابد من شدّة بالقوة والحزم ! ولا يفرق حضرة السفير السابق بين الحاكم " الحازم " والحاكم "الجزار" ، " السفاح " ، قاتل النفس التي حرّم الله قتلها إلا بالحق ...

وإنني والله يا أيها الإخوة أرى ألسنة قد " لبّخت " وحان سكوتها، وعليها أن تلم نفسها بالتي هي أحسن ... ولك الله يا شعب العراق العزيز .

رد غيبة الأستاذ ميشيل عفلق

كتب الأستاذ الفاضل خالد القشطيني في عموده المنشور بعدد الشرق الأوسط الصادر ٢٠٠٣/٥/٢٨ تحت عنوان " من عفلقيات البعث " ما يستوجب مني أداء شهادتي لرد غيبة الأستاذ ميشيل عفلق ، موضحة أنني قابلته مرتين وحيدتين في بيته ببغداد نهاية ١٩٧٨ ومطلع ١٩٧٩ وكان ذلك بصحبة صديقتي العزيزة إحسان هانم بيات ، زوجة الأديب الصديق سامي الدروبي ، رحمهما الله ، اللذين توطدت صداقتي بهما منذ عام ١٩٦٦ ، عندما كان الدكتور سامي الدروبي سفيراً لسوريا بالقاهرة. ولقد استمرت صداقتي بإحسان هانم بعد رحيل الدكتور سامي ، وكانت تحرص على زيارتي ولقائي بالقاهرة حتى إبان صلتها الوثيقة بجيهان أرملة الرئيس السادات في أيام سلطة السادات التي كنت فيها مفصولة من عملي وممنوعة من النشر ، وخارجة من بيت أبويا ورايحة بيت الزعران – (معتقل القناطر يعني) – وعندما سافرت إلى بغداد ١٩٧٥ ، وجدت إحسان الدروبي أمامي في نهاية ١٩٧٨ قادمة من دمشق لتعيد نشر مؤلفات الدكتور سامي الدروبي من خلال وزارة الثقافة العراقية ،

فرحت بها ورحبت بدعوتها حين سألتني : " تحبي تشوفي الأستاذ ميشيل عفلق ؟ " قلت : " أنا بالنهاية صحفية ، طبعاً إذا كان ممكن " . أرسل لها ميشيل عفلق سيارة مخصوصة ، مرّت بها علي ، وانطلقنا إلى داره ، ولا أذكر الآن موقعها أو اسم حيها . كنت متوجسة خلال الطريق من المقابلة فأنا لا أرتاح في لقاء " الناس المهمة " . كانت الدار محروسة كأنها ثكنة عسكرية أو معتقل خمسة نجوم . وأدخلونا غرفة استقبال مستديرة مهذبة المقاعد ، خالية من ذلك الذوق المتوحش للأطقم المذهبة التي تبدو في بيوت المسئولين الكبار متأهبة للانقضاض والافتراس .

قلت ملاحظتي لإحسان ، فقالت : " يا صافي ، الأستاذ صديق العمر مع سامي منذ كنا نغمس الخبز بالشاي ، دلوقت تحكمي بنفسك ! " دخل الأستاذ ميشيل عفلق بعد برهة معتذراً لأنه لم يكن السابق في الغرفة لاستقبالنا بسبب شأن عارض . نحيف ، رقيق ، هادئ ، خفيض الصوت، كريم في عبارات الترحيب ، بشوش في استقبال الكلام ، أنصت لي جيداً وأنا أهرع بشرح أسباب حماسي للثورة الشعبية الإسلامية على أرض إيران ، وأبين الخطأ في ترحيل الإمام الخميني من العراق – (أكتوبر ١٩٧٨) – وأذكر أنني قلت له : " إن إيران ليست عربية، ولذلك فإن أقرب أشكال الحكم فيها للأمة العربية هو الحكم الإسلامي الذي بإمكانه أن يساند قضايانا العربية في فلسطين وغيرها .. " ، كان يستمع مبتسماً ، مشجعاً حتى انتهيت من "محاضرتي" ، فقال : " كلامك سليم ، وهذا هو التفكير المنطقي ... لكن ... الإخوة هنا لهم وجهات نظر أخرى .. " قال

هذا بتموجات ألم زاهد في التفاصيل . داهمني لحظتها الشعور بأن هـذا الرجل " معتقل " حقا ، هارب من حكم " إعدام " مـن حـزب " البعـث " السوري ، ليتم اعتقاله وتحديد نشاطه من حزب " البعث " العراقي ، وهو " المؤسس لحزب البعث ونظرياته " ، كما قال الأستاذ خالـد القـشطيني صواباً . أردت تحيته والتربيت على قلبه ، مأخوذة بتواضعه وصـدقه، فقلت له : " .... لأن منهم قسيسين ورهباناً وميشيل عفلـق ! " أشـاح بيده: " لا ... لا... لست منهم ... ليس هناك أحد من المسيحيين في هذا البيت سوى زوجتي والكبيبة ! " إندهشت وقلت : " إذن ، أبـو محمـد ، ليس مجرد لقبك الحركي الحزبي " . سكت قليلاً ثم قال : " هذه أمور بيني وبين الله " . لم أزد ، المهم أنه " مؤمن " وليس " ملحداً " ، ولعله كـان يخشى الإعلان عن إسلامه حتى لا يتهم بالنفاق والمصانعة ، نعـم تلـك أمور بينه وبين الله ، أما القول بأن صدام حسين ، وجد مشكلة بعـد أن وضع الله أكبر على العلم العراقي ، في أن يدخل العلم الكنيسة فهذا كلام غير صحيح لسببين : أن صدام حسين لم يكن ليجد معضلة في خرق أي قانون أو عرف أو دين ، ثانيا : ما هي المشكلة في أن تتقبـل الكنيـسة كلمة " الله أكبر " ؟ إن كل مسلم ومسيحي ، صادق الإيمان ، يعرف حـق العلم أن " الله أكبر " .

المؤسسان لحزب البعث ، مفكران ، أديبان هما : ميشيل عفلق وصلاح البيطار ، وكلاهما انتهت حياتـه بـالنفي والاغتيـال علـى يـد السفاحين الذين اختطفوا " البعث " وجردوه من " الفكر " و " النظريـات "

و " الطموحات " الإنسانية ، وحولوه إلى عصابات قطاع طـرق يهلكـون الحرث والنسل . وإن معارضتنا لفكر البعث وتحليلاته لا تجعلنـا نطعـن ونغتاب حالمين، بوحدة هذه الأمة العربية ، وإن اختلفنا معهما ورأيناهما مخطئين ، تكفي نيتهما الحسنة ، ويكفي أنهما لم يمتلكـا سـلطة ، بـل " إمتلكتهما " السلطة وقيدتهما وكممتهما ، فهما " ضحايا " مثـل سـائر الشعب .

" بسم الله الرحمن الرحيم " : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هـو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بمـا تعملـون " . صـدق الله العظيم/ المائدة آية رقم ٨ .

وسلام عليك يا " أبو محمد " وأنت فـي " ذمـة الله " ، وهـو سبحانه وحده خبير بما كنت تؤمن وتعمل .

يا سلام سلّم الحيطة بتتكلم
(يا له من منطق)

ضحكت وأنا أقرأ رسالة بائع العراق صدام حسين ، إلى الشعب العراقي يطمئنهم أنه بينهم وإن كان شيئاً لا نراه . هذه الرسائل المزعومة تذكرني بعنوان مسرحية قديمة من مسرح الستينيات المصري لسعد الدين وهبة ، كان عنوانها " يا سلام سلّم الحيطة بتتكلم " ، وكان معناها يتلخص في بيت شعر يقول :

" يا ناطقا من جدار وهو ليس يُرى
اظهر وإلا فهذا الفعل فتان " !

ولأنني من أشد المؤمنين بنظرية المؤامرة ، في هذا العالم الذي تحكمه العصابات والمافيات والنوادي المشبوهة ، تحت رعاية الحقبة الأمريصهيونية ، فأنا مازلت أميل إلى أن صدام قد " سلّم وتسلّم " وهرب من سراديبه إلى قاعدة أمريكية قبل بداية الغزو الأنجلوأمريكي على العراق ٢٠ مارس ٢٠٠٣ ، وترك وراءه مخزوناً من أشرطة الفيديو

والكاسيتات اللازمة للألعاب المطلوبة بين حين وآخر ، وأراها ألعاباً في غاية السذاجة والفجاجة ، ومن العجب أن البعض يصدقها ويأخذها مأخذاً جاداً . إن محاولة لصق مقاومة العراقيين للإحتلال الأجنبي ببائع العراق، حيلة لئيمة ، لا يستقيم معها منطق ، لوصم المقاومة الشعبية بالصدامية وللإيحاء بأن بائع العراق في تناقض مع القوات المحتلة ، والتي هي في حقيقتها الامتداد المستمر لاحتلال صدام للعراق منذ ١٤ / ٧ / ١٩٧٩ . كل هذه الحكايات عن رؤية صدام بعد سقوط بغداد في هذا المكان وذلك الشارع يسير مع إبنيه الذئبين يقول : " انتهى كل شئ " ، فيبكي قصي ويتشنج عدي ، هذه كلها من حواديت " أمنا الغولة " . لقد كشف صدام حسين ظهر العراق وأرشد الأعداء الحلفاء ، حلفاءه ، إلى الأرض والناس ، فكيف لمثل هذا الوغد أن يقاوم أو يقود مقاومة أو يدعو إليها حتى ولو من وراء جدار وفيديو وكاسيت، وهو الذي تملك الوطن ٢٤ عاماً فلم يرع فيه إلاً ولا ذمة ؟ هذا الذي استباح كل حرمات الشعب العراقي ما له ومال مقاومة لمحتل ، لا يغيب عن أعين أهل البلاد ، يتجول في شوارعهم ، ويقتحم دورهم ، ويستذل رجالهم بالمجنزرات والسترة العسكرية والحذاء الثقيل والعنجهية المهينة؟ وقع البعض في الفخ وتساءلوا : أين الماء النظيف ، أين الكهرباء ، أين الوعود بالتحرير ؟ وكان لابد أن أنتحب وأنا أردد : كيف ترجون العدل من أيدي الجناة ؟ كيف تتعشمون الخير من البلاء ؟ متى كان يمكن لحدأة أن تسقط الكتاكيت ؟ تعرفون جيداً أنها قوات أجنبية ، فكيف يمكن أن تكون ملائكة تحرير ؟

إنها الجدب والوباء اللذين أتى بهما صدام ليكملا بعده مسيرة الخراب والتخريب ، إنها الوجه الآخر للشؤم الصدامي فكيف لا تكون المقاومة أهلية عراقية تحك بظفرها جلدها لتتولى بنفسها جميع أمرها ؟

لا يجوز لأحد أن يقع في أحابيل الخديعة التي تفترض التناقض بين قوات الاحتلال وصدام حسين ، بحيث يتصور من يلعن صدام أن من واجبه الدفاع عن قوات الاحتلال ، ويتصور من يلعن قوات الاحتلال أن من واجبه الدفاع عن صدام وتبرير جرائمه ومقابره الجماعية والاعتقاد بأنه : يقود مقاومة عراقية ! ياله من منطق ، يالها من مهزلة !

ولكن عذارى العراق لا بواكي لهن !

معقود لساني من الغيظ أتمتم : " ... ولكن عـذارى العـراق لا بواكي لهن " . " رغد ورنا صدام حسين " في لجوء وضيافة وشروط : " لن نسئ إلى والدنا ... وقصي وعدي .. و.. " ، لهما كل الحق ، فـنحن الذين نؤمن بـ " ولا تزر وازرة وزر أخرى " ، و " لا يجـرمنكم شـنآن قوم على ألا تعدلوا " ، و" إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور " . أمـا وأن تنحشر أنوف لتخرط على قلوبنا البصل وتقيم سرادقات عـزاء لآثمـين مجرمين شاركا في ذبح واغتصاب وتشريد وإذلال وخراب ، فهذا مـا لا يمكن قبوله . إن التسامح مع نساء صدام وبناته تسامح فيه كرم عظـيم من جانب الشعب العراقي ، بافتراض أنهن غير مسئولات عـن جـرائم الوالد والأشقاء والعشيرة والأعوان ، وإن كن قد قـبلن الـسكوت عـن انتهاك حرمات أخواتهن من عذارى العراق اللاتي ظللن طعاماً لا يـشبع بطن آلة القتل الجهنمية لنظام الوالد صدام حسين على مدى ٢٤ عاماً ولا يمكن أن يكن غير عالمات أو داريات بمـا يـدور حـولهن علـى أرض بلادهن، وهو عذر يكون أقبح من الذنب .

وبعـــد :

ما معنى هذا الاستفزاز من " البعض " على هذه الأرض العربية، شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، هـل يعتقـدون أنهـم بهـذا ، الرثـاء والتعاطف مع المجرمين ، يكونون قد أغاظوا قـوات الاحـتلال وقـدموا " التحدي " اللازم للجبروت الأمريكي و" الصمود " المفتقد للأمة العربية ؟

الحقيقة أنهم ينكأون جراح العراق وينثرون فوقها المر والعلقـم وما يزيدها التهاباً واشتعالاً وآلاماً خطرة .

ما زلت أذكر وجه الأم العراقية ، التي جفت من عينيها الدموع، تقول وتقول فأقول ، وأنا مفري كبدي من العجز : " ابتهلي إلى الله إنـه المنتقم العزيز الجبار " ، فترد : " طول الليل شايلة يديّا " ، فـي الليـالي السود عبر السنوات الطوال كن رافعات الأكف متضرعات إلـى الـودود الحليم ، ولم يكن لدي تصور لشكل العقاب الإلهي الكـافي الـذي يـشفي صدور هؤلاء الثكالى والأرامل والمكلومات ويذهب غيظ قلوبهن ، حتـى جاءت تلك النهايات العجيبة التي لم تكن تخطر لنا على بال مـن تعريـة وفضح لعصابة لصوص وقتلة جبناء يسلمون الـوطن بـلا دفـاع ، ولا يجيدون سوى الاختباء والتخفي للهرب " بجلدهم " وعلى أكتافهم يحملون سرقاتهم من خزائن الدولة ، وحين تتم محاصرتهم ، بسبب خيانة لـص على شاكلتهم ، يعرفون ساعتها "المقاومة" الخسيسة الوحيـدة الفطريـة

وهي " الدفاع عن النفس " ، فأين هـي البطولـة وأيـن هـي البسالة المزعومة التي يتغنى بها ذلك " البعض " ؟
لقد أهلك الله الظالمين بالظالمين وحرام أن تأخذنا بهم الرأفة .

أين العظة التي تعلمناها من الخسف بقارون وبـداره الأرض ، وبغرق فرعون وجنده، وبأصـحاب الأخـدود الـذين فتنـوا المـؤمنين والمؤمنات بالحرق والتعذيب ؟ أين العظة التي نتعلمها من الآيات الكريمة رقم ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ في سورة الأنعام : " فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا مـا ذكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخـذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الـذين ظلمـوا والحمـد لله رب العالمين " . صدق الله العظيم .

والآن : دعونا نستمتع بصرخات الظـالم الذليلـة : " مملكتـي بحصان ! " للهرب طبعاً ، وليس للدفاع عن الوطن المخذول .

العراق يدخل مرحلته الحديثة من الملاحم والفتن

الإمام الشهيد علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – صاحب المقولة الخالدة : " نِعْمَ الحارس الأجل " ، حين نصحوه باتخاذ حارس يحميه من الخوارج ، وعند عتبة مسجده في النجف الأشرف نال حفيده السيد آية الله محمد باقر الحكيم شرف الشهادة ، بعد صلاته الجمعة في غرة رجب الشهر الحرام ، وقد تتوج مشوار جهاده النبيل بنهاية تليق بعالم جليل تؤهله للحاق بركب علماء أجلاء آخرين ، من أسرته ، سبقوه على درب الاستشهاد ، لم يتخذوا حراساً لأن : " نِعْم الحارس الأجل " صحيحة مئة بالمئة .

لكن من هذا الذي أحل سفك الدماء في الشهر الحرام ؟ علت الصيحات :إنهم الأمريكان الذين من واجبهم حفظ أمن العراق !

وإنني والله لأجد الغرابة في هذه الصيحات .

لقد تم التنديد الكافي كل مرّة ، بعـد كـل حادثـة ، بتقـاعس الأمريكان في حفظ الأمن ، ولنفترض أن هذا صـحيح ، زيـن ! يبقـى التساؤل : فأين أنتم إذن يا أهل العراق وقد عرفتم أن ما حك جلدك مثـل ظفرك ، أين جهدكم لحماية أنفسكم بأنفسكم ؟ هل منعكم أحد من تـشكيل فوري من متطوعين للدفاع المدني يهبون للحماية والحراسـة ومراقبـة الأوغاد ؟

منذ أيام سبقت التفجير الذي أودى بالإمام محمد باقر الحكـيم ، والشهداء الذين قتلوا معه ، كانت هناك محاولة لاغتيال عمه العالم سعيد الحكيم نجحت في قتل مرافقيه ، فكيف لم تشرئب الأعناق وترهف الرقابة في حرص لتمنع الاحتمالات المماثلة ؟ كيف يتم السماح لسيارات مجهولة لتقف وتأخذ فرصتها عند بوابات مسجد يؤمه الكثيرون من أعداء بـائع العراق المخفي المتخفي صدام حسين ؟

لا مصلحة لأحد في قتل آية الله الحكيم سوى صـدام حـسين ، قاتل السابقين من آل الحكيم ومن آل الصدر وإخوانهم وأتباعهم وغيرهم من أقمار العلم الإسلامي من كل المذاهب – (لدي منذ سنوات سجل ضخم من مجلدين عنوانه " جرائم صدام " يزخر بالشهداء العلماء والمجاهـدين الذين قتلهم صدام حسين ، من شمال العراق إلى جنوبه ومن شرقه إلـى غربه ، فجرائم صدام – والشهادة لله – تميزت بالعدالة في الظلم ، ولـم

تفرق بين المذاهب ولا الأعراق فقد رأت أهل العراق أمة واحدة تستحق ضربات رسالة صدام الخالدة في متاحف السفاحين !) .

نعم لا غرابة في أن يحاول صدام حسين – وهو يحمل على كتفه زكيبة الدولارات المسروقة من مخازن الدولة – دفع أتباعه والمأجورين لقتل آية الله محمد باقر الحكيم الذي أعلن من منفاه في إيران ومن موقعه في قيادة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق ، على مدى ٢٤ سنة ، مقاومته السافرة للطغيان الصدامي .

لا أحد يملك كل هذه القدرة على التخريب والإضرار سوى الهياكل المنحلة من عصابة النظام الصدامي التي ساهم الغباء في إثارتها واستفزازها حين قرر بحماقة لا مثيل لها تسريح الجيش العراقي وطرد كل من انتمى إلى حزب البعث من وظيفته بخراب بيت مستعجل ، لابد أن تكون من بعض نتائجه أن يندفع اليائس المطرود والمخروب بيته إلى كل وسيلة يراها إنقاذاً أو ثأراً .

المعروف أن معظم من انتمى إلى حزب البعث كان مجبراً لأسباب مختلفة وبطرق شتى . كانت الطرقات مسدودة أمام كل مواطن لا ينتمى إلى البعث : الطالب النابه لا يمكنه مواصلة الدراسة العليا والترشيح للبعثات والعودة لمناصب التدريس والعمل بالجامعات والمراكز الثقافية والإعلامية والعلمية إلا بالانتماء للحزب ، وعلى هذا المنوال يمكنك القياس من أول بائع الكباب والشلغم المسلوق المنقوع في الدبس

وبائع الصحف وما هو أدنى ، حتى أعلى المناصب ، مروراً بحقك في ركوب حافلة " المصلحة " والتمتع بأي حق من حقوق شهيق وزفير المواطنة – (تماما وأكثر مثلما كان الحال في العهد الناصري بمصر حين كان الانتماء للاتحاد الاشتراكي فرض عين على كل مواطن ومواطنة من المهد إلى اللحد . وأذكر حين أراد العهد الساداتي فصلي ، وآخرين من مؤسساتنا الصحفية ، بدأ الأمر بقرار فصلنا من الاتحاد الاشتراكي – كان الاشتراك فيه بقرشين صاغ تدفع إجبارياً – واستتبع ذلك قراراً آخر بالفصل من نقابة الصحفيين تلقائياً لأن النقابة كانت تشترط لعضويتها عضوية الاتحاد الاشتراكي ، واستتبع الفصل من النقابة الفصل من المؤسسات الصحفية التي تشترط عضوية نقابة الصحفيين ، وهكذا كانت لعبة الحصار اللئيمة لقطع العيش والمنع من العمل والقتل المعنوي التام) .

مع حزب البعث الصدامي كان الحصار أشد وطأة ، من سائر النظم الاستبدادية التي عرفناها أو سمعنا عنها ، كان الحصار محكماً غاية الإحكام حتى الخنق – مجازاً وحقيقة – ولذلك حين هرب بائع العراق صدام خاذلاً الوطن ، والحزب والعشيرة والأعوان ، كان يجب أن تنطلق حكمة : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " لتطمئن العراقي من كل حدب وصوب على أنه لن يسدد عن السفاح الغرامات ولن يحمل العقوبات بديلاً عن المجرمين الأصليين ، وعندها كنا سنرى البجع المسحور الموروط في قمقم الساحر الشرير وقد عادت إليه إنسانيته خارجة من محبس

السراديب البعثية الصدامية ، وكنا سنرى الأيدي التي كانت لصيقة بالحكم والمناصب هي أول من يرشد إلى فاعلي الجرائم والخرائب والحرائـق ، وكنا سنراهم هم الذين سيأتون ببائع العراق مكبلاً في قفـص الوحـوش المسعورة مجلوباً للمحاكمة على رؤوس الأشهاد لتشنقه جرائمه وتطعنه مخازيه .

ولكن لأن " الحماقة أعيت من يداويها " ، واصل الأغبياء حصار الذين حاصرهم صدام من قبل ، فلم يكن أمامهم سوى ما نراه من آثارهم من أفعال " مقاومة " للدفاع عن "ذواتهم" وتحت شـعار : " أنـا وبعـدي الطوفان " و" بعد رأسي ما طلعت شمس " !

وهكذا يدخل العراق مرحلته الحديثة من " الملاحم والفتن " .

صورة صدام

غير صحيح أن الأدب والفن العربي تجاهلا الطغيان الصدامي ولم يعبرا عن وطأته على الشعب العراقي طيلة حقبته السوداء ، الممتدة بتوابعها حتى الآن بصور وأشكال عدة وأمراض متفاقمة ، فأنا أصر على تحية الفنان الفذ منصور رحباني ، على عمله الرائع " آخر أيام سقراط "، الذي تم تقديمه على خشبة دار الأوبرا المصرية مطلع عام ١٩٩٩، وفيها يصور نموذج الحاكم السفاح الطاغية الذي مهد لدخول المحتلين وطنه ، وتعمد المخرج أن يحاكي الممثل الذي يؤدي دور الطاغية ، حركات وإيماءات صدام حسين وابنه عدي . كما أنني أحسب أن أنوه برواية الكاتبة المصرية " نعمات البحيري " التي صدرت عن سلسلة روايات الهلال ديسمبر ٢٠٠٠ تحت عنوان : " أشجار قليلة عند المنحنى". هذه الرواية وثيقة أدبية بليغة ترصد بدقة الهوان الذي عاشه العراق تحت الحكم الصدامي ، بل كذلك الهوان الذي عاشته القوافل المصرية التي أغرتها الدعوة للعمل بالعراق في ظل حكم انتهج الاستعباد والاستبداد مبدأ وعقيدة . بطلة الرواية " الأنا " المتكلمة ، شابة مصرية

اسمها" أشجان المصري " تزوجت من شاعر سافرت معه إلى بلده العربي – مفهوم أنه العراق – تتصرف أشجان المصري بتلقائية المصرية التي لا تحسب حساب أجواء التربص والمراقبة والهيمنة التي يفرضها نظام حكم البلاد على شعبه ، في سيطرة كابوسية لا فكاك منها . تلقائية الشابة المصرية نابعة من خلو ذهنها التام – إلى حد السذاجة – لتصورات الكيفية التي يمكن أن تسد بها النظم الديكتاتورية المنافذ على الناس (في وطأة شديدة من كتم للأنفاس) حتى تزهق الروح تماماً . رويداً رويداً تكتشف أشجان المصري النفق الرهيب الذي صارت بداخله ومن هنا يبدأ بحثها المستميت للخروج والفرار . أهم ما في هذه الرواية هو التصوير الدقيق (والنقل الأمين) لمأزق الآلاف من المصريين البسطاء ، الذين خرجوا من ديارهم طوعاً بإغراء البحث عن الرزق الأوسع ، فوجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى عبيد مسلوبي الإرادة والحرية ، بعد أن استرقهم نظام الدولة الشقيقة ، بالاستيلاء على وثائق سفرهم وبطاقات هوياتهم ، وتسخيرهم في مهن جمع القمامة ، وكسح المجاري والسباكة ، وسائر الأعمال التي ينظر إليها أهل البلد على أنها أعمال حثالة البشر . " أشجان المصري " هو اسم البطلة ، لكنه في واقعه كان دفتر أحوال لعصر مجنون استولى فيه " الوحش " على " الجميلة " مغتصباً ، ومنتهكاً ، وممهداً السبيل لعدوان باقي الوحوش المسعورة .

على مدى خمس صفحات من هذه الرواية التي تستغرق ١٦٦ صفحة ، تصف المؤلفة "نعمات البحيري" في ألم وطرافة ، الهلع

الذي تولد حين قررت " أشجان المصري " ببساطة مسح زجاج بيتها بورق الجرائد ! تقول : " أخذني عائد من يدي وشدني خلفه وأوقفني أمام صفيحة القمامة ، وراح يخرج تلك الكتلة المؤلفة من أوراق وفوارغ وتفل شاي وقهوة ... وبقايا تنظيف خضروات وفاكهة . كانت ورقة الجريدة التي مسحت بها زجاج نافذة الصالة مبلولة ومطوية داخل نسيج الكتلة . وماذا في ذلك ؟ أن أمسح زجاج البيت بورق الجرائد ؟ كانت نظراته تنتفض بشرر لا تطفئه إجاباتي اللامبالية كما تبدو له ، وكنت ما أزال أحتفظ ببعض من وداعتي في استقبال هوس الآخرين ... أجابني بصوت مبحوح أن صورة السيد الرئيس تتصدر صفحة الجريدة . لم أقصد شيئاً مما تخشاه ، مسح الزجاج بالجرائد طريقة أكثر شيوعاً بين الناس في بلدي وبلاد أخرى . بدا عائد وكأن حشداً من كوابيس اليقظة يداهمه ، صفوف من الخوف والرعب والفزع ، فراح يفرد لي الصفحة لأرى صورة السيد الرئيس المبلولة والمخدوشة مثل وجه مكرمش ومشوّه . وفي لحظة وكأنه تذكر شيئاً ، جرى كالممسوس إلى باب البيت، يفتحه وينظر يميناً ويساراً ، ثم النافذة ليفتح ضلفتيها ويتبصص في كل الاتجاهات ، ثم يرفع سماعة التليفون يحدق فيها ويضعها . حدث هذا أكثر من مرّة . وكأنه يرغب في التأكد من شئ ما " ، ثم تسرد البطلة المحاولات المختلفة للتخلص من هذا "الجرم الفادح" حين تحولت صورة الرئيس المبلولة كأنها جثة قتيل مطلوب التخلص منها وإخفاء آثارها . حاولت وزوجها حرقها فلم تستجب ، بسبب البلل ، لعيدان الكبريت ،

" أخبرته أن مسألة إلقاء الورقة في التواليت وشد السيفون فوقها صارت حتمية في ظل غياب بدائل أخرى . مر الوقت وارتبك إحساسي بكل شئ حتى به وأنا وهو نقف محنيين ، نتابع الصورة والماء الغزير يتدفق فوقها . وعلى الرغم من تكرار عدد مرات شد السيفون ، ظلت الصورة طافية فوق الماء وملامح السيد الرئيس تنبعج وتتبدى وتتضح وكأن الروح قد ردت في الورقة.... وقد صارت ملامح السيد الرئيس أكثر حدة ودقة من ذي قبل وبدت نظراته وكأنها تتوعدنا بشرور أخرى قادمة . دق جرس الباب فأمسكت بعائد وتصالبنا إلى الجدار .. " وتنتهي المغامرة بالسهر حتى الفجر لانجاز تمزيق الصورة إلى " قصاصات نحيلة وإلقائها في البالوعة"! .

ولم تشعر بطلة الرواية بأى درجة من تأنيب الضمير بسبب ما فعلته بالجريدة التي بها " صورة صدام " لأنها تساءلت : " ... فكيف لا يكون لورق الجرائد دور حيوي في حياتنا غير الكذب والتشويه والتعتيم والتعذيب .. "

حقاً إنها رواية جديرة بالقراءة على ضوء ما جد من أحداث ومن تطور لموقع "صورة صدام" !

من سفّاح إلي سفّاح

انتهى عام ٢٠٠٣ بكارثة " طبيعية " حصدت الآلاف في " بم " الإيرانية ، وكارثة "غير طبيعية" أسقطت طائرة على سواحل " بنين " قتلت وأوجعت المئات ، بالاضافة إلى كوارث أخرى نطقت بها الألسنة ، وكتبتها الأقلام ، وسجلتها المجادلات القضائية : من قائل بالعربية وقائلة: " الحضارة الإسلامية ماتت منذ زمن " ، إلى قائل بالفرنسية : " لماذا تطالبونا بعدم حظر غطاء الشعر ، بينما لا يمكننا بناء كنيسة في مكة ! " و" شرودر " الألماني يشد على يد " شيراك " بمجامع الحسم العلماني في طمس الهوية الدينية لمواطنيهم من المسلمين على وجه الخصوص ، مؤكداً أن علمانيتهم مؤسسة على ثلاث ركائز : هي الحضارة اليونانية الرومانية، والديانة اليهودية المسيحية ، وعصر " الأنوار " ، أي " التنوير " ، أي " النهضة " الأوروبية ، والمنطق كرة تضربها الأقدام ، والذين ينعون " الحضارة الإسلامية " ، ويندّدون بـ " السلفية " العربية ، لا يرون في وثنية الحضارة اليونانية الرومانية موتا أو عفنا أو سلفية جامدة ، ولا يرون غرابة في مطلب لبناء كنيسة في مدينة ليس بها

مسيحي واحد ، بينما يندهشون من إصرار أكثر من عشرين مليون مسلم أوروبي على ممارسة حرياتهم الدينية ، ولو في أضعف أشكالها مثل حرية اختيار أسماء مواليدهم . وهكذا تتبدى الكارثة الكبرى في الخنوع والخضوع والمذلة والمهانة الاختيارية التي يسوق العرب والمسلمون أنفسهم إليها . وحين نريد أن نرفع رؤوسنا ونخرج من ركام الانسحاق يلوحون لنا بصور " صدام " و" عبد الناصر " و "السادات" و"القذافي" وأمثالهم ، كأننا لا يجوز أن نحيا إلا تحت كوابيس القتلة والسفاحين والظالمين ، الذين لم يكونوا يوماً " رؤساء دول " بل " خاطفي دول " و" جلادي شعوبهم " . وتعبّر النكتة عن الواقع النفسي المؤلم الذي انحدر إليه العرب ، فتحكي عن ثلاثة محكوم عليهم بالاعدام ، الأول أوروبي والثاني أمريكي والثالث عربي ، ويتم سؤال الأوروبي بأي وسيلة تريد أن تموت؟ فيختار المقصلة ، وعند التنفيذ يتوقف سكين المقصلة قبل الوصول إلى قطع عنقه فيقولون له : براءة من حقك مواصلة الحياة ، ثم يتجهون إلى الأمريكي ويسألونه السؤال نفسه بأي وسيلة تريد أن تموت؟ فيختار المقصلة ، وعند التنفيذ يتوقف سكين المقصلة قبل الوصول إلى عنقه فيقولون له : براءة من حقك مواصلة الحياة ، وعندما يتجهون إلى سؤال العربي بأي وسيلة تريد أن تموت؟ يقول : المسدس طبعاً .. ألا ترون أن المقصلة معطلة ولا تقوم بواجبها !

ولا نضحك ، رغم أنه ضحك كالبكاء ، فإطلالــة العــام الجديــد ٢٠٠٤ تدق أبوابنا بوطأة تحالف صهيوني أمريكي أوروبي شرير ينهش لحمنا ويشرب دماءنا ، في فلسطين والعراق ، بترسانة لــصوص ، لهــا قلوب أقسى من الحجارة ، تطلق المدافع ، والقنابــل ، وتــدك البيــوت بالمروحيات والمجنزرات ، وترغم الأعزاء على الانبطاح أرضاً والأنــف في التراب والرأس تحت الحذاء الثقيل لجندي أجنبي شــاكي الــسلاح . وتخزق العيون صورة أطفال عراقيين متلفعين بدثار في ليل برد الــشتاء العراقي القارس ، ينظرون في استفهام إجابته يقظة على التــوحش فــي ممارسات قوات الاحتلال خلال حملات انقضاضها الفاجر على المــساكن والبيوت والمنازل والأحواش والحدائق والبساتين . والنخيل والحرمــات كافة بحجة " التفتيش " .

عن أي شئ " هكذا " يبحثون ؟

أسلحة ؟ خصوم ؟ أم عن " روح " مقاومة شعب مجروح خرج من مقبرة طغيان ودكتاتورية وفساد لصوص ، ليقع في بئر إذلال وقهــر محتل ، وهلع جماعي لا يعلم متى تسكن فيه العواصــف وتنطفــئ بــه الحرائق ؟

تفتيش ، تفتيش ، تفتيش من قبل ومن بعد ، والتوحش واحد ، والغلظة متطابقة ، والقسوة الباردة تدير آلة القتل المعتاد من دون عقل ،

والتعب المتواصل يهطل على رأس الأبرياء ، تماماً كما كان علـى مـر السنوات الطوال في ظل حكم البعث الصدامي .

كان السفاح بائع العراق صدام حسين يقتل وينتهك رافعاً راية : " القضاء على خصومي واجبي حتى الإفناء " ! وجاءت قـوات الاحـتلال الأنجلوأمريكية ، تحت قناع سترة "الإنقاذ" ، تمارس الجرائم عينها : تقتل وتنتهك وتكبل وتهين الشيخ الوقور والمرأة المستورة والطفـل الجـائع رافعة الراية نفسها : " القضاء على خصومي واجبي حتـى الإفنـاء ! " والنتيجة هي : أرض حضارة الرافدين بـين كماشـة الأنـذال تواصـل مشوارها التاريخي في تلاطم أمواج الملاحم وزلازل الفتن !

والحكمة التي يقولها القلب هي : " لا يمكن أن يتحقق الخلاص من سفاح على يد سفاح آخر ! " .

ملاذ العراقي : قاتل عند كل زاوية !

في ٢٠ / ١ / ٢٠٠١ ، كتبت مقالاً نشر بجريدة الوفد القاهرية، جاء في نهايته الآتي : " نشرت جريدة الأهرام الصادرة في ١٦ / ١ / ٢٠٠١ في صفحتها الثامنة ، تحت عنوان " شئون عربية " ، هذين الخبرين متجاورين ، الأول ، نقلاً عن وكالة الأنباء العراقية ، مفاده أن الحكومة العراقية برئاسة صدام حسين قد قررت ، ولأسباب إنسانية ، تخصيص مبلغ مائة مليون يورو لفقراء الولايات المتحدة الأمريكية ، والذين يبلغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة ، وأنه تقرر أن يجرى توزيع المبلغ تحت إشراف هيئة عراقية يتم تشكيلها لهذا الغرض ، وأن يتم إطلاع الأمين العام للأمم المتحدة على هذا القرار. أما الخبر الثاني فجاء به تصريح للدكتور نبيل شعث يعلن أن الدعم العربي ، الذي قررته القمة العربية للقدس والانتفاضة ، لم يحوّل منه – حتى تاريخه – أي شئ ! هذه معلومات قديمة لإنعاش ذاكرة من يحاول أن يغالط بتصوير النظام الصدامي وكأنه كان قومياً ، حاملاً الهم الفلسطيني في سويداء قلبه . مائة مليون يورو من أموال الشعب العراقي، أنفقها السيد "أسير الحرب"

عطاء لفقراء أمريكا ، في الوقت الذي كانت صورة أطفال العراق الجوعى، المرضى ترفع صرخات واستغاثات تهيب بالضمائر أن أنقذونا فالموت يتهددنا . توقفت أمام جملة كتبها لؤي عبد الله ، في مقاله الفني " هل وصل الربيع إلى بغداد " بالشرق الأوسط ٢١ / ٢ / ٢٠٠٤ ، يقول: " ... فهذا البلد الذي تركته قبل ٢٦ عاماً كان مثلاً أعلى للأمن ... " أهكذا ؟ " مثلاً أعلى للأمن ؟ " ، في نفس اليوم ٢١ / ٢ / ٢٠٠٤ أتابع برنامجاً في قناة العربية عن عائلة صدام ، يظهر صديق عدي يتحدث عن اللسان الذي يقطع ، والأذن التي تبتر ، وأرى لقطة لعدي في مزاحه الفاحش يضرب واحداً من ندمائه بالحذاء على رأسه ، نزوات مريض تنكل بالأصدقاء والندماء ، فأي" أمن مثالي " كان من الممكن أن يرفرف على أهل العراق في ظل نظام تحكم فيه مثل تلك العائلة ؟

أصبح خبر اكتشاف مقبرة جماعية جديدة في العراق يمر هادئاً، كأن المقابر الجماعية من المحاصيل الطبيعية لأرض الرافدين . لم تكن هناك آلات تصوير لفضائيات ترصد جرائم السطو من سلطة الدولة الصدامية ، وقطع الطرقات ، ودهم البيوت وسحب الضحايا بالركلات والصفعات ، والطرد والتشريد ، والخطف والاعتقال الأبدي حتى الموت بالذبح أو الشنق أو الإذابة ، لكن الذاكرة اختزنت هول ما كان مستوراً عن أعين العالم . الجرائم التي حاقت بالشعب العراقي لا يمكن أن تسقط بالتقادم ، ولا يمكن رؤيتها إلا خلفية مؤسِّسة لفواجع العراق الحالية . إن الاحتلال الأمريكي للعراق من توابع الزلازل والانهيارات . ظلت

مخابرات أمريكا تهدي صدام إخباريات عن كل مقاومة أو تدبير للإطاحة به ، وتبارك مجازره على طول السنوات حتى تنفرد بإسقاطه – (أو ما يبدو إسقاطه) – لتبدو هي " الرجل الوطواط " المنقذ القادر وحده على تدمير الشرير – (وقد بدا في يدها هلامياً متكسراً شبحاً من دخان) – الذي لم يستحق منها سوى أن يتحفظ عليه تحت درجة : " أسير حرب " ! تغيظني الخطابات النادبة الناعية لما يجري بالعراق تحت الاحتلال ، كأن الاحتلال كان اختيارياً وانتخاباً وخلاصاً مرجواً لكنه بدد الآمال !

الأستاذ الفاضل خالد القشطيني ، وأنا على ثقة أن بئر الألم لابد عنده غويط ، يقول في زاويته المنشورة بالشرق الأوسط ١٦ / ٢ / ٢٠٠٤ : " ... يتعين إثارة رعب مشابه لما كان في عهد صدام ، بحيث يدرك المجرم أن عيون السلطة تترصد له في كل مكان . ربما يليق إدخال عدد من الشرطة المسلحة ضيوفاً على البيوت أو المتاجر بحجة الترصد لمجرمين . الفكرة من ورائها إشاعة شعور الناس بأن قوات الأمن في كل مكان ... " . لم أبلع هذا القول الصعب ولا أرضى أن يكون من بعض مزاح الأستاذ القشطيني كما لم أتصور أن يكون من بعض جدّه ، إذا أرجو أن يكون من بعض غضبه الذي يورث الخطأ ، فلا يمكن ونحن نرى نهاية صدام المهينة وعاقبة ظلمه وجرائمه ، التي يستحقها وأكثر عن جدارة ، أن ننصح باقتفاء أثره ونسير على نهجه في التجسس والتلصص وانتهاك الحرمات لكي نصل إلى المسئولين عن جرائم القتل والنسف ضد الشعب العراقي المكلوم . لابد أن هناك طريقة ما –غير الحرام– لكي يستتب الأمن .

ويظل ما يدور على أرض العراق العزيز يتشابه كثيراً مع أحداث فيلم سينمائي كان عنوانه : " قاتل عند كل زاوية " ، فما كاد الشعب العراقي يفلت من القاتل الأول وعصابته حتى وجد نفسه بين زوايا قتلة يتربصون به بدعوى " الإنقاذ " . يتعارك القتلة فلا تنزل السكاكين إلا على رقبة الشعب العراقي ، ولا تنهدم البيوت إلا على رأسه ولا يحيق الدمار إلا بأمانه وأمنه . وبين صيحات ووجوه تلبس أقنعة " المقاومة " ، وصيحات ووجوه تلبس أقنعة " التحرير " ، و"الإنقاذ" لا يجد العراقي " الملاذ " الواقي من القتلة . لابد لهذا الوطن من مَخْرَج بعيداً عن "الالتباسات" . مخرج لا يعرف مسالكه سوى هذا الشعب المجروح الذي عانى من " احتلال " سابق بلون الأرضية ، لا يهمه الآن سوى إنقاذ فلوله وذيوله وتعويض خسائره بأنانية انتهجها دوماً ، ومن احتلال أجنبي ، لا يهمه الآن سوى إنقاذ ماء وجهه ومداراة كذباته وتجميل بطشه الذي تفضحه ضراوته ولا إنسانيته ، التي تقوده دائماً .

لابد للشعب العراقي من تملك زمام " مقاومته " و " تحريره " و " نجاته " بيد "واحدة" متوحدة مخلصة ، تكون قد تعلمت أن خلاصها من السفاح لا يمكن أن يتحقق على يد سفاح آخر ، ولا يمكن أن يتم الاستقرار والأمن لأمّة كل قبيلة فيها أمّة !

... رُبّ مستمع والقلب في صمم !

صارت المغالطات والأخطاء ، والافتراءات والكذبات مثل الذباب المتكوّم في محل فسخاني ، لا يكاد الإنسان يهشه حتى يعـود مكانـه ، جالباً معه المزيد . نموذج من هذا الذباب الغليظ قرأته يقـول صـاحبه : " ... ولهذا فإن التركيز على ممارسات صـدام حـسين والبعـث الآن ، ومهما كان حديث حق وحقائق ، يخدم بلا شك الباطل الأمريكي ويكرسـه ويتناغم مع ما يعزف عليه من أكاذيب ، ولم تعد ثمة مصلحة وطنيـة أو قومية في ترديده بعد أن أصبح البعثيون طلائع المقاومة العراقية المجيدة ونال صدام شرف قيادتها ولو لبضعة أشهر واستشهد ولداه فـي إحـدى معاركها ... أنتظر كل مساء أنباء المقاومة العربية وعملياتها المظفـرة وأعرف أن بعض البعثيين في مقدمة صفوفها وضمن شهدائها ... ولـو كنت أعرف أن بريمر والجلبي هما بديلا صدام حسين لتمنيـت أن يحكـم صدام حسين إلى الأبد ... "

كيف يصل واحد من الناس إلى هذا التلبيس ؟

إذا كانت ملة الكفر واحدة ، فكيف لا يقودنا المنطق نفسه إلى أن : ملَة الباطل واحدة، ملَة القتلة واحدة ، ملة الفاسدين والطغاة والغزاة واحدة . إن " الباطل الأمريكي " ليس بديلاً لـ" باطل صدام " بل استمراريته ، والمعركة التي قتل فيها عدي وقصي لم تكن دفاعاً عن الوطن ، بقدر ما كانت منازعة خذل فيها الأوغاد بعضهم البعض . إذا كان هناك من لا يزال يتمنى لو ظل صدام حاكماً ، فليطمئن : فالأمنية متحققة لأن آثار جرائمه ونتائج بغية لا تزال سائدة وحاضرة في خلفائه المحتلين الذين باعهم العراق ليفر بدرجة " أسير حرب " وتفر عائلته ، وفلول عصابته ، بزكائب المنهوب من مال وثروة شعب العراق .

أي " طلائع مقاومة مجيدة " ، نال صدام " شرف قيادتها " ، تلك التي تبقر بطن العراق تحرق ذخائره ومكتباته ووثائقه وتدمر آثاره وتسرق متاحفه ، وتفجر مساجده ، وتقتل شيوخه ونساءه وأطفاله ؟

في ظل الحكم الهتلري كتب المسرحي والشاعر الألماني برتولد بريخت قصيدته الشهيرة " إلى الذين سوف يولدون بعدنا " قائلاً في مدخلها : " أنا أحيا في أيام حالكة الظلمة ، معتوه من يتحدث فيها ببرئ الألفاظ ، الجبهة لا تلمع إلا في وجه بليد الإحساس ، من يضحك هو من لم يعرف بعد النبأ الفاجع ، أيام يجرم من يتحدث فيها عن الأشجار ، مسدلا الصمت عن الأعمال الوحشية ، .... وتمددت لكي أهجع وسط القتلة ، ..... في أيامي كانت كل الطرق تؤدي للمستنقع ، ويكاد لساني

يسلمني للسفاح ، .... ، كنا نمضي نستبدل أوطانا ، أكثر ممـا نـستبدل أحذية ، .... " ، كل هذا التأوه البريختي ليس سوى الطفيف من الأنـين العراقي في ظل الحكم الصدامي الممتد حتى الآن عرضاً مستمراً في الزي العسكري الأمريكي .

كتب بريخت تلك القصيدة يبرئ ذمته من الحكم الهتلري ، وكان للحكم الهتلري "إنجازات" ، كما كان للحكم الموسوليني في إيطاليا ، فقـد بنى هتلر ، وبنى موسوليني ، الشواهق من الاقتصاد والصناعة والسدود والجسور والأنفاق ورصف الشوارع ، وتعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وزرع القمح والبطاطس ... إلخ ، وحقق هتلـر لألمانيـا " انتـصارات " حربية هائلة في مواقع كثيرة ، اجتاح فرنسا ودخل روسيا وانتصر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً قبل أن ينكسر دفعة واحدة ويسقط هو وموسوليني من حالق ، لكن بريخت ، عندما وقف ضد هتلر وهو فـي قمـة زهـوه بإنجازاته ، لم ير في هتلر غير سفاح شاذ يتفنن في القتل ويبتكـر لـه الوسائل التي يتفتق عنها خياله المريض ، متهماً خصومه بأنهم أعـداء التقدم والحرية وعصابات التخريب والإرهاب . وكان النـاس فـريقين : فريق صامت يمضغ المرارة في الخفاء ، أو مرتش يتمتـع بقربـه مـن السلطة وبما يصيبه من منافع . لم يحقق صدام للعـراق أي شـئ مـن "إنجازات" هتلر " المادية " لألمانيا ، لكنه حقق المجازر والجرائم وتفـوق في إفساد الفطرة البشرية السوية ليجد الأعوان والحاشية والأدوات ومَنْ وما يحقق له قهر خلق الله وإذلالهم . وكانت الآية الكريمـة : بـسم الله

الرحمن الرحيم : " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلمــوا مــنكم خاصـــة " نذيراً، لمن آثر السلامة ، تخبرهم أنهم ســوف يــدفعون ، إن آجــلاً أو عاجلاً، عقوبة صمتهم وسكوتهم وقبولهم رشوة " النجاة " مــن بطــش الطاغية في مقابل التغاضي عن سحق الروح وتشويه الفطرة وإهدار عزة الإنسان ، أكرم خلق الله ، وتعذيبه بالشبهة والظن ، بل و"المــزاج" مــن دون جريرة اللهم إلا لإرضاء شهوة البطش والبغي والجور .

أمريكا تخرج أضغانها

ما أجمل لوحة الكاريكاتير التي رسمها الفنان أمجد رسمي تصور وجه بوش يتحول إلى وجه صدام إبان غروره وسطوته الغبية . واللوحة يمكن أن نقرأها من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين فالتحول من " بوش " إلى " صدام " هو بذاته تحول " صدام " إلى "بوش"، لأن احتلال بوش للعراق تطابق مع احتلال صدام لأرض " النازفين " . بالطبع لا نندهش من نتائج الاحتلال بعد عام من تخلي السلطة الصدامية عن مسئولياتها في صيانة البلاد وحمايتها من الغزو ، وتركها للشعب العراقي يواجه القصف باللجوء إلى المسجد والاستغاثة بالله سبحانه وتعالى . ما زالت هذه اللقطة التليفزيونية ثابتة لا تتزحزح ، شاهدة على نذالة السلطة الصدامية ، إن لم نعترف بـ " مؤامرتها " وبيعها للعراق مقابل تسهيل الفرار للصوص بزكائب الدولارات .

في خلال العام لجأت سلطات الاحتلال إلى كم هائل من الإجراءات التي كان من شأنها أن تشيع الفوضى والمقاتلات والهرج

والمرج وخلط الحابل بالنابل . لا يمكن أن نصدق أن لجوء سلطات الاحتلال إلى حل الجيش العراقي ، وطرد موظفي الوزارات ، ودهم البيوت ، وإذلال الرجال ، وهتك ستر النساء ، وترويع الناس كافة ، لا يمكن أن نصدق أن هذا لم يكن مقصوداً ليؤدي إلى النتائج التي نراها الآن لكي تبرر القصف والضرب ، من أعلى ومن أسفل ومن كل جانب ، والمزيد الذي يتوعد به رامسفيلد بوجهه الفرانكشتيني . أمريكا تخرج أضغانها في العراق سادرة في القسوة والجنون ، تأملوا كم الإرهاب في المفردتين . "الصدمة" و"الترويع"! ولا يزال وجه بوش يطل علينا في ثقة المخابيل : " نحن في حرب دفاعية ... أنا أحمي الأمريكيين ... أنا أحرر العراق ... " ، يقول كل هذا بلسانه والعالم ما زال يشهد النقيض الحاصل من الدمار والذبح والتخريب والاعتقالات وفرض سيطرة القهر والاستبداد والدكتاتورية ويكمل رامسفيلد : " ... مستمرون من دون توقف حتى القضاء على الإرهاب ... "! .

على الشعب الأمريكي أن يسقط بوش وإدارته عن الحكم ويلبسهم قميص المجانين الكتافي فوراً ، إذا كان لهذا الشعب أن يصون بلاده من دورة الدائرة القاصمة الآتية لا محالة إن عاجلاً أو أجلاً . وإذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام قد نهانا عن التمثيل بجثث الموتى قائلاً : " إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور " ، فإن أبشع جرائم التمثيل هو ما تفعله أمريكا وحليفتها الصهيونية في القيم الإنسانية وحقوق البشر في الكرامة ، بالإضافة إلى عمليات الاغتيالات التي تنثر أشلاء الضحايا من

غسان كنفاني إلى أحمد ياسين ، ومن محمد باقر الحكيم وأصحابه إلى شهداء عاشوراء ١٤٢٥هـ .

هل لا يزال هناك من يعجب بـ " قوات الحضارة " الأمريكية ؟ داست قوات بوش كل ركن بالعراق ، متحف التاريخ والمحمية الثقافية التي لا يجوز أن تخدش أو يمسسها أحد بسوء ، يركلون الأبواب في فظاظة وجهل ، ويعلنون أسماء الخارجين على قانونهم . العدوان إجراء شرعي ومقاومة أهل البلد غير شرعية ، تشابه بشع بين جنودهم وجنود الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، فملة المجرمين واحدة .

على الشعب الأمريكي أن يعرف أن الشعب العراقي قد أفاق من " الصدمة " ويستعيد لياقته وتوازنه ليصد بنفسه ، وبلا هوادة ، وجه بوش ووجه صدام .

في سبتمبر ١٩٤٠ استطاع هتلر أن يبقر بطن أوروبا ويتوغل في أحشائها بدعوى إفساح المجال الحيوي للشعب الألماني للتغلب على الوضع الجغرافي المطوق لألمانيا ، وفي خلال فترة وجيزة التهم هتلر : النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والدانيمارك والنرويج وبلجيكا وهولندا وفرنسا ، حطمت قواته باريس وهددت الجزر البريطانية وبدا هتلر كأنه المنتصر ، لكن مقاومة الناس تصدت للعدوان والغرور الأحمق ، وبعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٥ وسقوط هتلر ظل الأدب الغربي ، وظل الفن ، وظل الشعر والمسرح والسينما ، في البلاد التي ذاقت الويلات، تتحدث

عن الوحشية الهتلرية وعن الخراب والعبث والجنون الذي انسحبت إليه القارة الأوروبية منتصرة أو مغلوبة ، فكيف يسمح العالم ، وكيف يسمح الشعب الأمريكي لبوش ورامسفيلد ، وبقية العصابة الحمقاء ، أن يعودوا بنا إلى منطق السفاهة وكلمات الخبل .

منذ سنوات والعراق أسير "الوحش" صدام حسين ، وها هي بقية الوحوش المفترسة تأتي من وراء البحار البعيدة تتلمظ لافتراس " الجميلة " التي عليها الآن أن تقاوم الاغتصاب بأظافرها وأسنانها .

يتعاطفون مع السفاح ليشتهروا بالرحمة

" أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل " ، هذه مقولة مشهورة ، لعل قائلها هو المجاهد الوطني مصطفى كامل ، قفزت أمامي لتلبس هؤلاء المتعاطفين مع بائع العراق ، الذي أحل قومه دار البوار ، المجرم صدام حسين ، مع تعديل مناسب : هؤلاء يتعاطفون مع السفاح ليخدعوا الناس بالرحمة .

يتمسك صدام حسين بأنه " رئيس دولة " ، كأنه قد حصل على المنصب شرعياً بالانتخاب والاختيار الحر . ويتساءل : بأي قانون تحاكمونني ؟ كأنه يعرف " القانون " ، الذي لم يخطر على باله حين أعدم العلامة محمد باقر الصدر وشقيقته آمنة بنت الهدى ، والآلاف غيرهما من العلماء والمجتهدين والأبرياء ، من دون أن تطرف له عين أو يستشعر وخزة ضمير يتساءل عن حق إنسان متهم ، بالظن ، في ادعاء ودفاع وقضاء واستئناف ونقض ، بل لم يخطر على باله حين قتل سيده ومسئوله و" رئيس دولته " أحمد حسن البكر ، ثم مشى في جنازته ،

وحين أطاح برقاب رفاقه في ضربة " سيف " واحدة ، بعد أن قرر ، هو وحده ، أنهم خونه والخائن – كما أفتى – " ما له عندنا إلا السيف " ، وحين لم يتح الفرصة لرافع يده برجاء كلمة واحدة تنقذ عنقه ، زاعقاً فيه ، " إطلااااع " ، كأنه كان عبداً من عبيده توارثه عن أجداده . تذيع الفضائيات لقطات من وثائق مسجلة لجولات حضرة " رئيس الدولة " يستوقف فيها المواطنين ، يكلمهم من شباك سيارته الفارهة الأمامي وزوجة ساجدة ، بشعرها الأصفر المصبوغ ، في المقعد الخلفي شاهدة وهو يلقي محاضرته : " هذا دماغ لابد يكون به مخ " ، يرتعد الرجل المتوقف أمامه ويهز رأسه : " تمام سيدي " ، ويواصل حضرة " رئيس الدولة " السائل الآن عن القانون والمحامي ، " ما يكفي تهز رأسك ، لازم تفتهم " ! يتكلم بعنجهية وعجرفة متحكم فظ في ملجأ للقطاء ، يعرف أنه ما من أحد هناك يحاسبه ، لا أب ولا أم ولا أهل ولا عشيرة ولا حق ولا قانون ، شعب بأكمله مخطوف ومكبل ومكمم ومحبوس – رهينة – في سراديب وأنفاق وأقبية من كل شكل ونوع ، حتى أقرب المقربين غير آمن ، حتى أشرس كلابه المتوحشة ، لا تعرف متى يميتها السم والرصاص والإذابة . يتبجح " أسير الحرب " ، ناعتاً بوش بالمجرم ، كأنه لم يتقدم بطلب – تم رفضه من هيئة حقوق الإنسان – ليظل عند " بوش " أسيراً ولا يتم تسليمه للعراقيين . ألم يكن الأجدر به أن يفرح بانتقاله من أيدي المحتل الأمريكي " الغاصب " ليكون في حضانة أهله ؟ لكن متى كان صدام حسين عراقياً منتمياً إلى أهله ، خائفاً عليهم ،

حريصاً على دمائهم ، حارساً لأعراضهم ، مدافعاً عن حياضهم لحظة القصف والدك والدهس بأحذية المحتل الذي انتهك سيادة الوطن ؟ متى ؟ يسأل عن حق في " الكويت " ولم يعرف كيف يحمي " بغداد " ، ولا يخجل مع ذلك أن يصر على أنه "رئيس دولة" العراق ! ألا تكفيه جريمة تمكينه الأعداء من احتلال البلاد ليستحق بها الإعدام ألف مرة ؟

يتألم واحد من المتعاطفين مع السفاح لأن " القاضي " صغير السن . ما عمر القاضي؟ في عشرينياته ؟ في ثلاثينياته ؟ في أربعينياته ؟ وكم كان عمر صدام عندما تربع قاضياً على العراق ، سارقاً أمواله ، ساحباً غطاءه البنكي من الذهب والدولارات ليكدسها في حاويات وزكائب مليارات مليارات تحت يده تسهل له الإفساد ، والإنفاق على من يشاء وكيفما شاء وفقاً لأهوائه ونزواته التي لم تحقق له شبعاً ؟

وكم كان عمر " عدي " و " قصي " عندما تسلطا على أنفاس الناس يقطعون الآذان والألسن والأيدي وما هو أفدح ؟

ثم من أين تأتي المحكمة بقاض عراقي تعدي الخمسين أو الستين أو السبعين بعد سنوات حكم صدامية لم تأل جهداً في السعي لإبادة الحكماء والعلماء والمفكرين ورجال القانون وأساطينهم ، بالهدر والتسفيه وبالتهميش وبالنفي ، إن لم يكن بالقتل وبالسكتات الدماغية ؟

وما هو هذا المنطق الأعرج المتربص بكل ناطق بالحق ، يرميه إذا أشار إلى جرائم صدام كأنه يختار جرائم بوش ، وإذا ندد بجرائم بوش كأنه يعفو عن جرائم صدام ، فكأنه من المحتم أن نظل نختار بين البول والبراز إذا شئنا الخلاص من أيهما ، وهما أنجس من بعضهما البعض .

لو كان هناك اختلاف أو تناقض بين المجرمين صدام وبوش ، بين الاحتلال بلون الأرضية والاحتلال الأجنبي السافر ، لما أسبغ بوش على صدام لقب " أسير حرب " ، ولما استغاث صدام بحقوق الإنسان لكي يظل بأيدي المحتل الأمريكي ، ولما تمكنت ابنته رغد من التزين والابتسام لعدسات التصوير ، بخلفية بيتها صاخب الثراء الذي تسميه " بسيطا " ، وهي تحكي عن " حقوق " الوالد بصفته " رئيس دولة " يرى أن " فرجه قريب " ! .

إن الذين يتعاطفون اليوم مع " آلام " صدام ، لحظة قصاص الله بهوانه وإذلاله ، يظلمون " آلام " الشعب العراقي ظلماً جارحاً لا شفاء منه ، ويغمطون حقها في أن ترى نهاية عادلة لسفاح مستبد لم يرع في أبناء وطنه إلاّ ولا ذمة ، وينتزعون من الضحايا وأهلهم وعداً من الله سبحانه وتعالى بأن يشفي صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . إنها ليست الشماتة ، لكنه " القصاص " ، والعبرة ، وليتعظ من له " دماغ به مخ " بحكاية قارون المغرور الجبار ، الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم وأشاع الفساد في الأرض ، واغتر به من يريدون الحياة الدنيا ،

كلما خرج في زينته ، وتمنوا مثل ما أوتي ، وفي سورة القصص يـــأتي قول الله سبحانه وتعالى في الآيتين الكريمتين ، ٨١ و٨٢ ، ليرينا عاقبة المتكبرين : "فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانـــه بـــالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن مـــنّ الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكـــافرون " . صـــدق الله العظـــيم والحمد لله رب العالمين .

حاكموا صدام بقانون صدام !

لابد أن يحاكم كل طاغية بقانونه ، الجزاء من جنس العمل . لابد أن يحاكم صدام حسين بقانون صدام حسين . هـذه اللافتـات المائعـة : " أسير حرب " ، " اتفاقية جنيف " ، "حقوق الإنسان" ، " لابد أن نثبت أننا لسنا مثله ... " إلى آخره ، هذه لافتات يدوسها الحكام بالأقدام فوراً حين يهب الشعب المظلوم للدفاع عن حقوقه ، أبسط حقوقه : الماء والغـذاء والكساء ،عندها لا نرى حقوقاً للإنسان ولا نرى أياً من هـذه اللافتـات لصالح الشعب . الحاكمون الجدد في العراق يعلنون ضرورة عودة عقوبة " الإعدام " ، يا سلام ؟ هل كانت قد ألغيت ؟ هؤلاء القتلى اليوميين مـن الناس ، ماتوا تكريماً ؟ ما هي " العقوبة " إذن ، وما هو " الإعدام " ؟ .

لا تحمد السيدة رغد صدام حسين ربها على بقائها " حرّة " تملك ما تملك مما أعطاه لها " الوالد " ، ساعة غـزو الـبلاد حـين أرسـلت السيارات " المؤمنة " لتهريبها هي وأمها السيدة ساجدة وشـقيقاتها ، لا تحمد ربها أن السيد الوالد لم يفكر سوى في إنقاذ عائلته والبلاد تدوسها

أقدام الغزاة ، لا تحمد ربها في أنها أفلتت هي وأمها من الوقوف أمام محكمة شعبية ، مدانتين بتهم الاتفاق الضمني مع الطاغية لسلب العراق ماله وأرصدته وآثاره وإذلال أهله واستباحة حرماته . ألم تكن تعرف رغد وأمها ساجدة ما استطاع أي زائر عابر بالعراق أن يعرفه عن آلام أهل أرض " النازفين " ؟ يا سلام يا ست رغد ، يا خليفة والدك المسكين أسير الحرب الذي تريدين أن تساعدينه بكل ما تملكين بمحامين " أمريكيين " لأنهم : " يمكن أن يكونوا أكثر منفعة من محامييها الذين يثيرون الضجيج ... " ، كما أفادت حضرتها في حديثها مع الصحفية " دافني باراك " المنشور بالشرق الأوسط ٣ / ٨ / ٢٠٠٤ - إذن فأنت يا ست رغد تعرفين " المساعدة " ، و " بكل ما تملكين " ، ماذا تملكين يا رغد ومن أين لك هذا ؟ ، وتريدين محامياً " أمريكياً " طبعا جيد التوصيل لتوسلاتك ليتمكن والدك من الإفلات من العقاب الذي يستحقه ، وأي عقاب يمكن أن يكون كافياً وشافياً وحقاً وعدلاً لهذا الذي أهلك الحرث والنسل وأتى بجراد الغزاة يكملون مسيرته في التهام الأخضر واليابس في أرض " النازفين " . أصابتك يا رغد الهيستريا بسبب القلق على الوالد، أسير الحرب في الزنزانة المكيفة ، تعرفين إذن "القلق" يا رغد ؟ ألم يناوشك القلق على أهل بلادك يوم كانت الرصاصة بالدماغ أسرع من الصفعات ؟ ويوم ... ويوم ... ويوم ... ؟ الشابة السادية الأمريكية " انجلاند " تقدم للمحاكمة لأنها أهانت رجالاً عراقيين ومثلت بجثثهم ، ليسوا من جنسها ولا من ملتها ولا من بقية أهلها، لماذا لا تفرحين أنك

ووالدتك ساجدة وبقية عائلتك لم تؤخذوا مثلها للمساءلة عن الصمت الإجرامي الذي كان دثاركم يوم هتك عدي وقصي أعراض العراقيات والعراقيين ، بل يوم أطيح برأس زوجك وعائلته رغم خدمات الإجرام العديدة التي قدموها لوالدك وأخويك ؟ هل "إنجلاند" أكثر إجراماً منك ومن والدتك وبقية أهلك ؟ تزعمين أن لديك " كبرياء " ؟ ما شاء الله ، أبعد كل هذا الهوان للوطن والأهل والعشيرة وما زلت تملكين " كبرياء " ؟ تفخرين " أنا ابنة صدام وأمي زوجة صدام . أطفالي أحفاد صدام ... هو في حاجة إلي بعد موت أخوي ... " ، ممتاز ، إذن عليك أن تفهمي أنك وأمك وأطفالك قد هربتم من العقوبة المستحقة عن هذا الانتماء . تندبين حقيقة أنك وأولادك الآن " بلا وطن " ، مع أنك ما زلت تعيشين في " الوطن العربي " ، ماذا عن الذين شردهم أبوك و " أركان نظامه " على مساحة الكرة الأرضية من القطب الشمالي حتى الجنوبي . لا يعنيني كيف فرض أبوك الحرب على إيران وكيف غزا الكويت ، فإيران كانت تملك قدرات الدفاع ، والكويت عرفت لمن تلجأ ، الذي يعنيني ، من البداية إلى النهاية هو ذلك الشعب العراقي الذي اختطفه أبوك ، وأركان نظامه ، ووضع السكين على نحره يذبحه في الدقيقة ألف مرة ، والكاميرات لا تصور سوى التصفيق والتأييد والركوع والسجود للجبار المفتون ، وما من التفاته للشعب الرهين الذي قطع لسانه وصودرت إمدادات دفاعه . تخيلي يا ست رغد لو كنت ابنة " مخلوع " من " الرئاسة " وكان "صدام حسين" هو " الخالع " ، لا "المخلوع" ، ماذا يمكن أن يفعله بك " قانون "

صدام حسين " . هل كان من المحتمل ، ولو صفر في المليون ، أن تكون لديك شكوى بسبب عدم السماح لك بزيارة في " زنزانته المكيفة " ؟ هل ثمة بند في قانون صدام حسين كان نصه : " حق المواطن في زيارة سجين له " ، ناهيك عن رئيس مخلوع ؟ لماذا لم يعامل صدام حسين بقانون صدام حسين ، يطبق عليه قانونه "بحذافيره" نعم " حذافيره " ، هذا هو " العدل " الذي ارتضاه صدام طيلة حكمه للشعب العراقي ، وهو الأولى به الآن !

صحيح صدق المثل القائل : " سكتنا له ، دخل بحماره " !

منصور رحباني وفن الخصومة مع الطغاة والغزاة

للفن الجميل سره الشافي من وجوم الأيام الصعبة ، وأضيف : للفن الأصيل رؤيته الثاقبة التي تبدو أحياناً مثل النبوءة الصادقة .

منصور رحباني الآن على مشارف الثمانين ، حفظه الله ، وعندما ظهرت له " آخر أيام سقراط " ، كان في الرابعة والسبعين ، ولديه الوعي بسنوات مرت على منطقتنا العربية وعلى العالم بأسره ، لا تقل عن ٦٠ سنة ، بدايتها الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وضياع فلسطين ١٩٤٨ ، وعدوان ١٩٥٦ ، وهزيمة ١٩٦٧ ، والحرب الأهلية اللبنانية المدمرة وغير المعقولة ، ومسلسلات الخديعة السلامية ، إثر النصر الوحيد عام ١٩٧٣ ، وهيمنة النظم الدكتاتورية باسم مصالح الشعب ، ودخول أحلام التحرير الوطني والحريّة والاستقلال والعدالة الاجتماعية تحت مطارق التعذيب والإهانة والطرد والقتل صراحة وغيلة حتى الإبادة على طاولة السجون والمعتقلات الدوّارة ، ثم ، أخيراً ، الوقوع في براثن الهيمنة الأمريكية ، دولة واحدة ، تدعى الديمقراطية ،

وتسعى لتحكم قبضتها على الأرض ، تقتبس وتعيد قسوة وجبـروت كـل مدارس إمبراطوريات الاحتلال والاغتصاب الحديثة والموغلة في القـدم ، فالرائي لشاشة التاريخ يشاهد على ملامحها : التتـر والمغـول وطغـاة الفرس والرومان ومجون مترفيها وتهتكهم ، رغم ادعائها أنها " نظـام " عالمي جديد .

يختار منصور رحباني ، لمدخل مسرحيته الغنائية : " آخر أيـام سقراط " ، لحظة تاريخية هي احتلال أسبارطة ، دولة الحرب والشراسة، لأثينا ، وطن الفكر والفلسفة . سقراط هو الشخصية المحورية التي ترمز إلى المقاومة الفكرية في مواجهة الكذب والفساد والاستبداد والخزعبلات وعقائد الشرك والوثنية ، ونسمع سقراط يخاطب وطنه المحتل : "أثينا يا أثينا ، أنا واللي مثلي عملناك يا أثينا ، جعلناك مدينة الفلسفة والحضارة، السياسيون شرشحوك ، خلو عسكر سبارطة المتوحش يدعس ترابك ..". وقبل تجرع السم ، في نهاية العرض تنفيذاً لحكم الإعدام بحقـه ، يعلـن إيمانه : "... إله واحد خالق ها الكون ... " ، رافضاً لآلهـة : " تأكـل وتشرب ... آلهة تتجوز ... لأ ... " ، وهذا البعـد الإيمـاني لشخـصية " سقراط " ، يتعمد " منصور رحباني " توضيحه ، مع تمتماته المـسبحة في نصه المطبوع الحريصة على " بإذن الله " و " شكراً لله " ، مما يجعلنا نحس بالعمل مرفوعاً بنية صلاة تدعو وتؤكد أن من هو : " رايح ع درب الحقيقة ، متوّج بالاستشهاد ... " .

" سقراط " – القائد الفكري والروحي للناس – لا تحبه أي سلطة، سواء كانت سلطة "كريتياس" ، الحاكم الفرد عميل الاحتلال الأسبرطي ، أو " أنيتوس " ، زعيم الحزب الديمقراطي تاجر الجلود وحارس مصالح الأغنياء على حساب حقوق الشعب الفقير . " سقراط " ، الواقف بين الناس في خندق الحق ، في خصومة مع الطغاة والغزاة ، هو الذي ترميه التلفيقات بالتهم: "سقراط إنت اللي دخّلت سبارطة ، إنت اللي زعزعت الدين ، بسبب تعاليمك غضب الآلهة حل علينا ، لازم يتحاكم سقراط ... " وهكذا ينقلب الميزان القسط . " ... المطلوبين حاكمين والشرفا محكومين ... " .

قدم المخرج " مروان رحباني " الممثل " زياد سعيد " في دور الطاغية " كريتياس " ، عميل الاحتلال وسفاح شعبه ، ليتشابه في الحركة والإيماءة والصوت تشابها ، لا تخطئه العين، مع توليفة مكونة من صدام حسين وابنه عدي – (ذلك إبان سطوة صدام وعدي ، بما يؤكد أنه كان هناك من استشعر آلام الشعب العراقي وتصدي لمعذبيه بالإدانة من دون خوف أو تردد) – وينشد الكورس ، بلسان منصور رحباني : " حكم كريتياس بسيف سبارطة حكم ، مشي نهر الرعب بأثينا ، كتب الشعر تلطخت بالدم ، طرقاتك يا أثينا أيدين وخناجر ، دايما حدا مارق ، ودايماً خنجر ناطر ... " عقوبات الإعدام وجبات يومية : " وسع الظلم ، انكسر العدل ، إسودي يا أثينا " . يقول " سقراط " للطاغية : " كريتياس ، هل بيحق لنا نلغي إنسان إذا كان رأيو بيخالف رأينا ؟ " ، ويرد السفاح : "

لأجل الصالح العام ... " فيسائله "سقراط" : " هل فيه حكم صالح بيقـــرر يقتل ؟ " ويختصر الحاكم الجائر الحوار : " ... ما حدا يتعاطى بالـــسياسة بيعيش مرتاح ! " وحين يطلب " كريتياس " من سقراط أن ينضم إليـــه ، يواجهه " سقراط " شو قضيتكم إنتو وحزبك غير التنكيل بالناس ؟ " لذلك يصدر الأمر من "كريتياس" بمنع "سقراط" من الكلام : " اعتباراً من اليوم ممنوعة التجمعات ، ممنوعة التظاهرات والتعليم بالساحات ، في حـــبس واعتقالات ! " ولا يتراجع " سقراط " ، المرجع الفكري والروحي للناس ، " علينا أن نمتلك الجرأة لنعلن عن أفكارنا ونجعلهـــا مطابقـــة لأفعالنـــا.. الناس أغلى من الحكم " .

" أفلاطون " ، من تلاميذ " سقراط " ، يحكـــي عـــن جمهوريـــة الفاضلة : " وبالجمهورية رؤساء الدولة مش لازم يمتلكوا فلوس ومـــش لازم يتجوزوا ، حتى قرايبهم وولادهم ما يستغلوا الـــسلطة ! " وتـــستمر الملامسات الكثيرة الساخرة عن فـــساد الحكـــم والمحـــسوبيات وخـــرق القوانين بالقوانين ، وقتل الشعب بـــدعوى مـــصلحته : " خلّـــي رجالـــك ياكوستا يعدولي خيالات الناس ... مين اللي بيفكر يتمرد ، مـــين معنـــا ومين علينا " . وتكون الإجابة : " بقيو اللي معنا وخلصوا اللي علينا .." أما مشكلة الفقر فيكون حلها بإبادة الفقراء : " ... إلغي الفقـــرا بتلغـــي الفقر ! "

وحين يذهب الحاكم الفــرد ، يــأتي الــديمقراطيون بــسلطة ، مستغلة: " ... إجت الديمقراطية ما تغير علينــا شــئ ... " ، وتــستمر المواجع نفساً لا ينقطع يشهق به عرض "آخر أيام سقراط" ويزفر حتــى تصل ذروته في المحاكمة وقرارها بإعدام " سقراط " بتجرع السم ، وقــد رفض الاسترحام : " عيب ع العدالة نلتمسها لشفقة ... يا قــضاة ، أنــا عارف إني جاي ع الموت ، لا تترقبوا مني موقف ما بينسجم مع واجبي الأخلاقي والديني ... " وتصرخ زوجته : " ... كل واحد بنقول عنه بطل مصلح قتل من شعبه ميت مرة أكثر مما قتلوا المحتلين " .

يرفض " سقراط " فرصة الهرب ويواجه المــوت : " انفتحــت أبواب الليل ، والموت قصيدة ، اعطوني يا حراس الكاس ، كتار بيحملوا الشعارات وقلال المكرسين .. "

حين يشرب كأس السم تقع عصاه ويجمد " ســقراط " ، رمــز المقاومة الفكرية والروحية ، واقفا حتى يغيب صاعداً مرتفعاً إلى أعلى ، والجميع ينشد في قصيد شعري موسيقي غنائي مشحون : " يــا بــواب الدهر تعلّي ، ارتفعي يا مداخل ، يا غيم الأبيض صلّي ، غطي الهياكــل ، اللي راكع بدو يعلي ، والطاغي بدو ينذل ... يا صيف يا شتا ويا أعياد... رايح ع درب الحقيقة ، متوج بالاستشهاد " .

أحببت أن أنعش الذاكرة بهذا العمل المسرحي الفذ ، الذي جسّد وظيفة الفن الضرورية والراقية ، التي لا تلمس الجراح بالزاعق الحارق،

أو الثقيل الكاتم للتنفس والمهيج للإلتهاب النازف للدم والقيح . وأحببت أن أسجل لمنصور رحباني رؤيته الثاقبة التي جاءت مثل نبوءة صادقة ، حققتها أمامنا هذه " الأيام " !

من هم (الأجانب) ومن هم (أهل الدار) ؟

الطغاة يجلبون الغزاة ، والغزاة لا يرعون في بلد إلاً ولا ذمة ، فهم ، متى دخلوا قرية أفسدوها وجعلوها أعزة أهلها أذلة . إن ما يحدث في العراق ، من بداية النجف الأشرف حتى الفلوجة الباسلة ، مروراً من البصرة في الجنوب حتى الموصل في الشمال ، أشياء فوق قدرة تحمل أي جهاز عصبي سويّ آدميّ بشريّ إنساني . والمقولات الملفقة التي تدعى فرحة البعض بـ " بسالة جند التحرير الأمريكي " كذب وافتراء وتلفيق وضيع فج ورخيص . لقد أدمى صدام حسين العراق بمجازر " حلبجة " والمقابر الجماعية والهتك والطرد والتشريد ، وجاء حلفاؤه من بعده يكملون مشواره بجعل كل مدن العراق " حلبجة " ، وكل طرقاتها مقابر وكل برامجها اليومية هتكا وطردا وتشريداً وجرائم ضد إنسانية أي إنسان يدب بقدميه على هذه الكرة الأرضية . لا يخجل متحدث أمريكي من التصريح بأنهم عثروا على " أجانب " يساندون مقاومة أهل الفالوجة، ونكتشف أن " الأجانب " المعنيين من أقطار عربية وإسلامية مختلفة . هؤلاء هم " الأجانب " الدخلاء أما حضرات العسكر الأمريكي وقوات

التحالف متعددة الجنسيات فهم " أهل الدار " الأقحاح وأصحاب الشرعية التي تخول لهم البرطعة من جنوب العراق إلى شماله ، ومن شرقه إلى غربه بالمجنززات والمروحيات والقنابل المحرقة والأسلحة الفتاكة ، ولِمَ لا ؟ أليسوا هم أصحاب القوة والمنطق القادر على جعل المقاومة مرادفة للإرهاب ، والدفاع عن النفس والحرمات مرادفا للانفلات الأمني ؟

هل ينتقم إياد علاوي من أهله لأن صدام حسين قتل أمام عينيه، أفراداً من عائلته ؟ هل هي مسألة ثارات شخصية ؟ أم أنه واحد من الذين تشربوا منهج الممارسات البعثية الصدامية الوحشية فلا يرى بأساً من التحريض على إذلال بلاده وأبناء الوطن والدين والعشيرة؟ ما هذا الذي تباركه من قتل وتدمير وتنكيل على أرض العراق يا سيد علاوي ، وأنت يا حضرة الياور ، وأنتم يا عربان الحي ؟ ألا تخافون غضب الله ؟ هل هذا الذي يحدث للأطفال والنساء والرجال والبيوت والحرمات من قبل الجراد الأمريكي ، هو الدواء الناجع لترشيد الانفلات الأمني ، وترويض الفوضى ، ونشر الطمأنينة حتى يأمن المواطن الخطف والقتل والذبح ؟ هل بتعفن الأجساد في الطرقات وانطلاق الوباء يتكبل الخاطفون ؟

تحارب أمريكا ، ولا تعدم من يؤيدها من العرب والمسلمين ، أهلنا ، وطنا وتعيث الفساد في أرضنا ، بلداً بلداً ، تحت لافتات واضحة التزوير ، تارة بحجة " مكافحة الإرهاب " وتارة " أسلحة دمار شامل " ، وتارة " إسقاط نظام فاسد " ، فما هو النظام الذي تحميه

أمريكا؟ أليس هو النظام الصهيوني السفاح الذي يغتصب أرضاً لا ينتمي إليها ، ويغير هويتها ، ولغتها ، وعقائدها ، بالقوة بالقوة والترويع والاغتيالات المعلنة ، المفتخر بإنجازها ، وتدخل هذه الترسانة العسكرية الإرهابية في حلقات مناقشة : " طرق مقاومة الإرهاب العالمي" لتدافع عن أفراد عصابتها بصفتهم : " مدنيين أبرياء " ، وأهلنا في فرار يعدون كغزال تتبعه كل كلاب الصيد ، هربا من ترسانة أمريكية بوشية رامسفالدية مصاصة للدماء ، تمخر البحار والمحيطات وتعبر بصواريخها أرض العرب والمسلمين ، تقتل من تريد بتهمة إيواء الإرهاب ، فهل هناك "إيواء للإرهاب" أكثر من إيواء الإدارة الأمريكية ، على طول تاريخها ، لإرهاب الكيان الصهيوني ؟ وهل هناك قرار إرهابي أخطر من إعلان أجهزة المباحث والمخابرات الأمريكية ، إعادة العمل بقانون الاغتيالات ، ومن يفتح فمه ليتكلم عن "مؤامرة" صهيونية ، يصفعه التحضير للقانون القادم " معاداة السامية " ؟ ما معنى " قانون " و"اغتيالات"؟ ما هذا الربط العجيب ؟ ما هذا النصب والاحتيال والكذب الصارخ والاستهانة الوقحة بالمنطق ، الذي تقف إلى جواره بعض الأصوات العربية والإسلامية بدعوى دعمها لمكافحة الإرهاب ؟

كل حرب عالمية قذرة ، لم تتوان عن اختراع لافتة نبيلة ترفعها لتبرر عدوانها على البشرية بأسلحة الدمار الشامل ، تحت علم الدفاع عن " الحرية " و " الديمقراطية " و " ضد الفاشية " و " ضد النازية " و " من أجل سعادة البشر وإطعام الكادحين " . واتخذت الحرب الأهلية الأمريكية

الضروس شعار " تحرير العبيد " ، ووصل المحللون فيما بعد إلى حقيقة أنها لم تكن سوى ذريعة اقتصادية لسيطرة ولايات الشمال الأمريكية على ولايات الجنوب . هذا الكلام نقوله لندلل أنه لو كانت هذه " الهبة " الأمريكية البوشية ضد " الإرهاب " حقا لما تزايدت ممارسات الإرهاب الصهيوني تحت مظلتها وتصاعدت خلال الأعوام الأربعة الماضية في إدارة بوش ، والمنتظر أن تركب أعلى ما في خيلها خلال فترة رئاسته هذه البادئة بعد فوزه في "عار" الانتخابات الأمريكية ، ولما شاهدنا على شاشات الفضائيات ما استطاع مصوروها من رصده لأبشع أشكال الممارسات الإرهابية الفظة التي يقوم بها حالياً جند وعسكر قوات الاحتلال الأمريكي تنفيذاً لتوجيهات رامسفيلد المشرف المباشر على سحق مدينة الفلوجة الشهيدة الشاهدة .

حين قال بوش ، منذ سنوات ، " إنها حرب صليبية " ، لم يكن مخطئاً ، هو يعرف تماماً " أنها حرب صليبية " ، وقد عقد العزم على أن يجوس خلال ديارنا بهذه الصفة : " قائد صليبي " يردد " ها قد عدنا يا صلاح الدين " ، فلماذا يا عربان الحي لا تصدقون الرجل ؟

ماذا قال نجيب سرور فى ملك الشحاتين ؟

في الموسم المسرحي ١٩٧٠ / ١٩٧١ قدم مسرح البالون بالقاهرة عرض مسرحية نجيب سرور " ملك الشحاتين " ، بإخراج جلال الشرقاوي . ورغم التشابه الظاهري بين نص نجيب سرور ، ونص " أوبرا الثلاث بنسات " لبريخت ، التي أخذها عن مسرحية إنجليزية قديمة إسمها " أوبرا الشحاتين " لجون جاي ، إلا أن مسرحية نجيب سرور تختلف عنها اختلافاً بينا، في مسار الحدوتة ، وفي عرض وتوظيف الشخصيات الأساسية للمسرحية ، وفي مدلولات الحوار السائد ، وإيحاءات المونولوجات الشعرية ، ثم في المضمون النهائي للعمل الذي أراد المؤلف لنا أن نخرج به .

في مسرحيته ، " آه يا ليل يا قمر " ، يحدد نجيب سرور ما تعنيه شخصية "الإنجليزي" في مسرحه حين يقول أحد أبطاله : " اللي ياكل حقنا يبقى إنجليزي ، حتى لو كان دمه مصري . " الإنجليزي " في تاريخنا المصري الحديث كان هو المحتل الباغي ، الذي يمارس سلب

الرزق وسلطة القهر بالظلم والعدوان ، ومن ثمّ ، فحيثما ظهرت دلائل وأفعال السطوة والظلم ، واتحدت الأهداف والمصلحة مع المحتل ، لا تعود الملامح القومية سوى مجرد أقنعة للعدو الذي ما فتئ يسعى ويتخفى ليتمكن من محاصرة الشعوب المكافحة وقهرها من بين صفوفها ومن داخل جسمها . الحاكم الدكتاتور الطاغية ، والإقطاعي ، والخائن ، والعميل ، كلهم لهم عند نجيب سرور مرادف " إنجليزي " بمعنى المحتل ، العدو ، القوة الأجنبية الغازية . ويتأكد لنا هذا التحديد لـ " الإنجليزي " عند نجيب سرور حين يضع في نصه " ملك الشحاتين " شخصية "جورج" الإنجليزي ، الذي يكسب من وراء فساد قطبي المسرحية " أبو دراع ملك الشحاتين " و"أبو مطوة زعيم الحرامية" . " أبو دراع " و" أبو مطوة " مركزاً قوة – من أهل البلاد – يتصارعان حول المنفعة الذاتية والتسلط ، المستمد على الدوام من مساندة " جورج " المحتل ، وهما بذلك ، لأنهما من أولاد البلد ، أصبحا تابعين لجورج : ينفذان أغراضه ، ويلذ له اللهو واللعب بهما مع الاستفادة المستمرة من وراء رغبة كل منهما الإطاحة بالآخر والانتصار عليه ولو بالتنافس في دفع الرشاوي السخية للسيد " جورج " .

نعرف أن " أبو دراع " يبني مملكته بالاستغلال الذي يمارسه بتجارة الفقر ، ونعرف أن " أبو مطوة " يحكم سيطرته بالرعب الذي يشيعه . ويصبح النزاع بين " الاستغلال " و"الرعب" وأيهما يظفر بالمعلمة على البشر ، والحكم في هذا النزاع هو " جورج " الذي يرجح أحد الجانبين وفقا لكمية ما يقبضه منهما ، وهكذا يكون من المنطقي أن تعلو

الصرخة الثائرة في وجه " الرعب " و " الاستغلال " و " المحتل " ، هؤلاء " الإنجليز " جميعاً : " لحد إمتى ح يفضلوا المساجين مصريين والسجانة إنجليز ؟ " .

يقدم نجيب سرور شخصيتي " أبو دراع " و " أبو مطوة " ، تقديماً مركباً : " كلاهما يلعب شخصيته الفاسدة ، ويدينها في الوقت نفسه ويقوم بدور " المرشد " عن فساده و"المنبه" الموضح لأوجه التلاعب في منطقه الملتوي وطيبته الكاذبة المخادعة . غير أننا نجد أن المؤلف اختص " أبو مطوة " – زعيم الحرامية – بتوظيف إضافي فيعطيه أحياناً " لسانه " واحتجاجه ، فنجد " لأبو مطوة " مونولوجاته المفعمة بالسخط والثورة على الفساد والرعب ، المتسبب هو شخصياً بجزء مباشر فيه ، إلى أن يصل ، بعد كلمات متدافعة متضاربة هستيرية ومنفعلة ومتهكمة تبني ، بتراكمها المهوش والمشوش عن عمد ، حالة ألم محض نحسه غائراً في القلب . بين قطبي النزاع " أبو دراع " و " أبو مطوة " هناك " ألماظ " ، ابنة الأول التي خطفها الثاني ليتزوجها . " ألماظ " ابنة " الاستغلال " وحبيبة " الرعب " ، لكنها مع ذلك هي عند المؤلف خيط التحول إلى الأمل ، كيف يكون ذلك ؟ لو أننا نظرنا إلى " أبو دراع / الاستغلال " لوجدنا أنه قرين " الغيبوبة " فزوجته " نفوسه " لا تفيق من الخمر ، وهي كذلك طرف في شركة للتجارة في الرقيق الأبيض مع " لواحظ " صاحبة بيت للدعارة والزوجة الأولى لـ "أبو مطوة / الرعب".

فتصبح الدائرة المتحدة ، كما تـصورها المـسرحية ، هكـذا : " الاستغلال " ، " الغيبوبة أو فقدان الوعي " ، " الدعارة " ، " الرعب " : هي أصابع " جورج / الاحتلال " المكتملة المطبقة علـى عنـق الـشعب المسجون . حين تتجاذب الأحداث " ألماظ " وترى حدة التناحر بين والدها وزوجها تكتشف رويداً رويداً أطراف الدائرة وترى بوضوح يقظ أن قبضة " جورج " القوية الضاغطة على عنق بلادهـا ، ليـست سـوى تجميـع للأصابع المنحرفة من أهلها ، وتعلو أغنية المساجين لتملأ أذنـي " ألماظ " بالوعي والتطهير المتعاظم : " يا حبسة الزنازين ، يا ليل يا عـين ، يـا حبس فيك مظاليم ، تلفيق وكذب في كذب ، ياالابسين الجوانتي إديكو فيها الدم ، هي استغماية ولاّ دي الـتلات ورقـات ؟ " . ويكـون متوقعـاً أن تتناهض " ألماظ " إبنة الدائرة المظلمة ، وتتعاون مع المظلومين وتغنـي شعارها : " البادي بالعدوان ظالم ، والظالم بالعدوان بـادي ، والمظلـوم أظلم لو سالم ، أو سلّم وما خدش التار " . وحين يعود النزاع بين "أبـو دراع" و"أبو مطوة" ، يكون الرد الحاسم : " لا أبو مطوة ينفـع ولا أبـو دراع " !

يا أهل ودّي ساعدوني

لم أعد أفهم شيئاً " من " أو " في " أو " عن " العراق العزيــز . أنا ما زلت أذكر كلمة قالها جبرا ابرهيم جبرا لي في بيته على الغداء عند وصولي إلى بغداد سبتمبر ١٩٧٥ ، قال: " صار لي سنوات بالعراق ولم أفهمه ... " ثم ضحك وقال : " لا تحاولي .. " لكنني حاولت ، وعلى مدى إقامتي ، التي استمرت متواصلة مــن ١٩٧٥/٩ حتــى ١٩٨٠/٦/٢٩ ، تصورت أنني أحسست العراق أكثر مما فهمته ، وقلت أن " الإحــساس " يجلب " الفهم " ولكن " الفهم " لا يعطي " الإحساس " بالضرورة . والذي وعيته من " الإحساس " أن هناك بالعراق شعباً واحــداً هويتــه الأولــى " عراقي " ، ضفيرة منسوجة من أمة الإسلام وأمة العــرب ، خيوطهــا ملمومة من أقدم الأعراق وأصل العرائق ، فليس هناك عرق إنساني لــم يدخل في تركيبة العراق ، وليس هناك عقيدة إيمانية لم يحملها في قلبه ، وكنت أرى أن هذا ما يعطيه التماسك ويحميــه مــن الفرقــة والتفــرق والتحزب والتعنصر والطائفية وليس العكس . كنت أدخل أحاضر طلابــي

وأقرأ أسماءهم ، أمثال " ساوة " ، و" باكيزة " ، و " روناك " ، و " هيفاء " ، و " الألوسي " ... إلخ ولم أعرف أبداً ، ولم أحاول أن أعرف ، وقاومت أن أعرف ، الصابئي من الأثوري من الكلداني من الكردي من السني من الشيعي من الرعية العثمانية أو الذي من أصل التبعية الإيرانية ، كنت أراهم كلهم سمة واحدة ، وسحنة واحدة ، مزايا واحدة ، وعيوباً واحدة ، يعتزون بها أيما اعتزاز !

عندما كانوا أحياناً يفصحون عن خلفياتهم التي " أصلها " من هنا أو هناك ، كنت أقول " يا جماعة كل هذه الأعراق والأصول عندنا مثلها في مصر ، لكنها تذوب فوراً خلال أقل من جيل ، ولو تأملتم لدينا عائلات بألقاب " الكردي " و" الشيرازي " و " الأصفهاني " و "الكريتلي" و"الصقلي" و"العجمي" ، و"العربي" و"التونسي" و"العراقي" و"الحجازي" و"النجدي" و"المكي" و"السنوسي" بل و"الصيني" و"الهندي" ، وكان لدينا مقرئ للقرآن الكريم اسمه " منصور الشامي الدمنهوري" ، إلى آخر الألقاب التي تنم عن وافدين من كل أصقاع الأرض جاءوا إلى أرض الكنانة ، ثم أصبح الجميع مصرياً ، يرتفع منهم من يرتفع إلى المناصب والمسئوليات والشهرة الأدبية والثقافية والاجتماعية بصفتهم الوحيدة " مصري " ، ولو كان لقبه يشي بأصل وافد ، صحيح يمكن أن يقال بشكل عابر : " هو من أصل كذا " ، لكن كذا لا تعدو كلمة تقال من دون أن تترك أثراً يؤدي إلى حكايات التقسيم والموازنات بين مواطن وآخر ، وحينما يريد من يريد أن يختلق تقسيماً منحطاً مثل " مسلم ومسيحي " يوقف عند حدّه بحزم ، وغالباً ما يكون الاختلاق مدفوعاً من عدو

خارجي نقول عنه أنه " يبتغي الفتنة " . وكنت أقول لماذا يظل النازح عندكم مطارداً بأصله وفصله ولو ظل بالعراق ألف سنة ولو ظل يقسم أنه عراقي ابن عراقي ؟ أظل أمزح وأقول : إن العراقي لا يحتاج إلى تحليل الحامض النووي – (الدي إن إيه) – لاثبات عراقيته ، يكفي أن تضع أمامه ذلك الشلغم المسلوق المنقوع في الدبس – (عسل البلح) – فإذا استساغه فهو عراقي ابن حلال مصفي ، وأراهن أن يتحمل هذه الوجبة الممتعة للعراقي أي إنسان آخر ولو كان من المغامرين ، واسألوني أنا عندما خرجت ذات مرّة من باب جامعة المستنصرية ووجدت تلك العربة التي يتصاعد من ماعونها البخار ، يلتف حولها ، على ركن الطريق ، الطلاب من كل حدب الجامعة وصوبها ، يأكلون ما عليها بشغف وتلذذ ، وقفت بينهم : ماذا تأكلون يا شباب ؟ قالوا : شلغم منقوع في الدبس ، قلت : لذيذ ؟ قالوا : كلّش طيب ! تصورته مثل حلاوة البطاطا المشوية في مصر أو مثل الذرة المشوي على الفحم على شاطئ النيل ، هاجني الشوق فقلت : أجرب ، وما أن وضعت ذلك " الشلغم " – الذي هو اللفت المسلوق أبو عسل – على طرف لساني حتى كدت أروح في غيبوبة سكتة حلق أو دماغ أو قلب . ضحك الشباب : ست ست إيش بيش ؟ قلت في ضعف : " شلغم " !

من أجل ذلك لم ولا أفهم تلك التقسيمات التي تكونت أو تتكون منها الحكومة العراقية لم ولا أفهم إلحاق صفة رئيس العراق بـ : " الكردي " ، ورئيس الوزراء بـ " الشيعي " ، ونائب " سني " ونائب " شيعي " ، والله عيب ، كيف يوافق أهل العراق على هذه التقسيمات

وهو يعلم – بحق " الشلغم أبو دبس " – أنه صاحب " هوية " لـــيس لـــه غيرها : " عراقي " ، ولو دفعتـــه العواصـــف والزوابـــع إلـــى ســـكنى الإسكندنافية أو أي مجاهل على الكرة الأرضية من القطب إلى القطب !

المغول يكرِّمون جنكيز خان ؟ وَلمَ لا ؟

كتبت الزميلة عزّة سامي ، في جريدة الأهرام ١٤ / ٥ / ٢٠٠٥، تتعجب من أن رئيس وزراء منغوليا قد قال أن جنكيز خان " لم يكن حقاً الرجل الشرير " الذي أكدته كتب التاريخ ، وأن منغوليا منذ استقلالها عام ١٩٩٠ ، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، تفكر جدياً في إحياء ذكراه بصفته " قائدها المغوار " الذي يستحق منها التكريم .

وتقول الزميلة في هذا السياق : " ... جنكيز خان الذي سعى في الأرض فساداً وعرف ببربريته التي لا قدرة لقائد أو زعيم تاريخي ، أيا كان دمويته ، القدرة عليها ... " ، إذن ما تعترض عليه الزميلة فقط هو " حجم " الدموية ، وليست " الدموية : في ذاتها ، وهذا ما لم يعجبني في اعتراضها ، فالإفساد والبربرية والدموية ، قلت أو كثرت جرم وظلم وحرام ، ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً ، وإذا كان زماننا زمنا يرفع فيه البعض صوته افتخاراً بفرعون وقورش والحجاج ، ويعظم نابليون بونابرت ، ويحتفي بمحمد علي باشا ، الذي ذبح ضيوفه

من المماليك على مائدة طعامه وهم عزّل بعد أن خلعوا أسلحتهم احتراماً لعهد الأمان ، ونجد في ذكرى مرور ٢٠٠ سنة على عهده الأسود ، من يبرر له جريمته الشنعاء ويعطيه الحق والعذر مع لقب باني مصر الحديثة التنويرية ، وإذا كان هناك من لا يزال يرى في صدام حسين وعبد الناصر إيجابيات تعوض جرائمهما ضد الإنسانية وتخول لهما اغتيال كرامة الوطن والمواطنين وإهدار فرص النهضة والتحرر الحقيقي من ذل التبعية والجهل والفقر والمرض ، وتبرئهما من مسئولية ما نحن فيه من خضوع واستسلام وانسحاق وضياع وخراب والتباسات وانكسار تحت أقدام احتلال الهيمنة الأمريكية المتوحشة ، المتوغلة في حشايانا مثل الإيدز والسرطانات المفترسة ، التي ترى الظلم فينا عدلاً ، والاستباحة أمنا ، والانتهاكات أمانا ، ولا تفتأ تذكرنا بأن شارون وإخوانه وأمته ، هم أبطال السلام وصناعه ، فلماذا لا يبرز وجه جنكيز خان بطلاً مغواراً في أعين أهله وذويه ، بل ومعه قريبه هولاكو فوق البيعة ؟

لقد كان جنكيز خان ، ١١٥٥م – ١٢٢٧م ، وثنياً همجياً لم تهذبه عقيدة سماوية عليا ، ولم يدّع انتماء لأفكار حضارية حرّة ثورية ديمقراطية مدنية تنويرية حداثية إنسانية .. إلخ إلخ إلخ . لقد تربى جنكيز خان على قيم مجتمعه القبلي الجاهلي البربري ليكون وحشاً كاسراً، يعلو قدره كلما أثبت قوة ساعده في البطش والسحق وسفك دماء من يعارضه أو يعترض طريقه . وعندما اجتاح ديار المسلمين منهياً دولة خوارزم الإسلامية الكبرى ، كان يسأل الناس ما هو دينكم وماذا يقول ؟ وعندما يسمع منهم الإجابة : " ديننا الإسلام الذي هو كذا وكذا "،

يتلفت حوله ويرد متهكماً : " لا أرى أنكم تقيمون دينكم ، أنا نقمة ربكم عليكم ! " .

عندما كنت ، في العهد الساداتي ، معتقلة ظلماً في سجن القناطر للنساء يناير ١٩٧٥، مأخوذة بقسوة من رضيعتي قبل الفطام ، سمحوا لنا باستعارة بعض الكتب من مكتبة السجن ووقع في يدي كتاب رائع عن جنكيز خان ، نسيت عنوانه واسم مؤلفه ، وهالني ، أو عزاني، ما جاء فيه من تفاصيل عن السياسة التي اتبعها لينجز إبادته لأهل خوارزم وهو يجوس خلال ديارها ، إذ كانت كل قرية تسمع أخبار المذابح التي تحدث في القرية الملاصقة ، تحكيها وتأسف لها لكنها كانت لا تفعل أكثر من مصمصة الشفاه وتعقد العزم على " حكمة " عدم المقاومة لتتجنب الإبادة حتى يأتي دورها فيفعل بها السفاح تماماً مثلما فعل بجارتها السابقة من إفساد وقتل وذبح وهدم للمساجد وتدنيس للمصاحف... وهلم جرا ... إلى أن زهق من جهد القتل والإبادة بنفسه فقرر أن تتكفل كل قرية بقتل نفسها بنفسها ، فكان يدخل القرية ويستدعي سادتها وكبراءها وأعيانها ويطلب منهم إرشاده إلى كنوز القرية المخبوءة ثم يكلفهم بذبح أهلها فيسارع هؤلاء السادة والكبراء بالاستجابة ، ومن فورهم يذبحون أهل قريتهم بأيديهم مع التفنن والإتقان حتى يحظوا بإعجاب جنكيز خان ، متصورين أنهم بهذه الطاعة الفاسدة سوف ينجون من بطشه ، ولكنهم ما يكادون يفرغون من عملهم الإجرامي البشع حتى يبتسم جنكيز خان في رضا ثم يأمر جنوده بالإجهاز

على هؤلاء السادة ، الذين بقتلهم ذويهم يكونون قد اختصروا لجنود جنكيز خان مهمة القتل الشاقة إلى قتل عددهم الضئيل .

ولقد امتدت الموجة المغولية وابنة عمها التترية ، بعد جنكيز خان على يد هولاكو ، ١٢١٧م – ١٢٦٥م ، تهلك الحرث والنسل حتى أوقفها " قطز " ، بطل دولة المماليك المصرية، بانتصار عين جالوت عام ١٢٦٠م .

اعتنق المغول والتتار الإسلام فيما بعد ، لكن " الجنكزية " بقيت رمزاً للتوحش والهمجية ، لا نراها فقط في طغيان الدول وجبروت الحكام، لكننا نجدها نزعة ظلم موجودة عند الكثيرين بنسب متفاوتة ، بل ونلاحظها عند بعض المثقفين والكتاب والأدباء والمفكرين الذين يعلنون رفضهم الصارخ للظلم وكبت الحريات ، ولا أذيع سراً حين أذكر أنني شخصياً عانيت حين اجتاحني جبروت فارس الرومانسية يوسف السباعي وقت أن جاء رئيساً لمجلس إدارة دار الهلال ورئيساً لتحرير مجلة المصور ، التي كنت بها معينة ناقدة وكاتبة ، فمنعني من النشر منذ ١٩٧١/٨ ، وقدّمني لقائمة الاستدعاء الأمني الدائمة ، معتقلة في عدد من قضايا الرأي الملفقة التي كان السادات يحتاجها من حين لآخر ، وظل هذا المنع جارياً ، وظلت تلك الملاحقة جارية حتى بعد رحيله بخمس سنوات ، إلى أن عدت لعملي وللنشر ٢٥ / ٣ / ١٩٨٣ .

ويؤسفني أن أقول أن فارس الرومانسية يوسف السباعي لم يكن السابق في هذا الإجراء " الجنكيزي " ضدي ، فلعل الأستاذ الفاضل

أنيس منصور يتذكر أن ضربته كانت المبكرة والأولى ، حينما جاء بعد موسى صبري رئيساً لتحرير مجلة الجيل مطلع ١٩٦٠ ، وكانت تصدر عن دار أخبار اليوم ، عندما أعلن أنه يريد أن يرى المجلة مكتوبة بقلم أنيس منصور من الغلاف إلى الغلاف ، وعليه فلا يجوز أن يكون بها غيره ممن يعرف فن الكتابة ، حتى ولو كان زهرة صغيرة شابة ، لم تتعد الثانية والعشرين ، تحاول أن تطل بقلمها كيما تتنفس موهبتها ، فآثر كتمانها حتى الخنق بسد المنافذ لولا فرارها من أمامه ، بل من مصر كلها للدراسة بأمريكا ١٩٦٠/٨ نجاة من النزعة " الجنكزية " المبيدة التي لا تزال تتلبس الكثيرين وترغمني ، حتى الآن وأنا على مشارف السبعين، إلى الفرار من وجهها متنقلة من جريدة إلى أخرى ، متى أعطتني "الأمان" ، ولو إلى حين .

في عهد عبد الناصر اشتهرت مقولة : "كلنا جمال عبد الناصر"، صحيح مئة بالمئة: كلهم جمال عبد الناصر !

العلامة محسن عبد الحميد وجناكزة العصر

" لحاها الله أنباء توالــت علــى سمع الولــيِّ بما يَشُــقُّ
يُفصّلها إلى الدنيــا بريــدٌ ويُجملهــا إلى الآفــاق بَــرْقُ
تكاد لروعة الأحداث فيــهــا تخــال من الخرافــة وهي
صدق وقيل معالم التاريخ دكت وقيل أصابها تلف وحرق"

....

وقيل وقيل وقيل وقيل .... ولم نكفكف الدمع أبداً يا شاعرنا أحمد شوقي ، منذ قلت أبياتك عن نكبة دمشق في تياترو حديقة الأزبكية بالقاهرة ، يناير ١٩٢٦ .

رغم كل ما نحسبه " من الخرافة وهي صدق " ، فقد صعب عليّ تصديق ما هو مؤكد قد حدث وحلّ بدار العلامة الفاضل الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد . لقبه في الأخبار المذاعة والمنشورة هو " رئيس الحزب الإسلامي بالعراق " ، لكنه عندي هو " العلامة " من أفخر علماء العراق ، وواحد من أهم علامات الثقافة والأدب والوعي في أنحاء أمتنا

العربية والإسلامية . عاصرته في بغداد سنوات إقامتي بها ١٩٧٥ – ١٩٨٠ ، لكنني لم أقابله قط ، كان كتابه القيم " حقيقة البابية والبهائية "، الصادر عن مطبعة الوطن العربي ببغداد ، من أنفس ما حملته معي إلى القاهرة ، حافظت عليه واتخذته مرجعاً علمياً دقيقاً لكتابي / الملزمة : " في مسألة السفور والحجاب " ، هذا العلاّمة ، الفخر العزيز ، يدخل عليه " جناكزة " العصر ، بمرافقة عراقي مترجم فظ يتلفظ بكلمات نابية ، ينتهكون حرمته ، حرمتنا ، فجراً في غرفة نومه ، يفرقعون القنابل ، ويضعون كيساً على رأسه الجليل يكتم أنفاسه ليتمكنوا ، بالإرباك ، من شد وثاق يديه إلى الخلف ، ويقتادونه من دون أن يسمحوا له بشرب جرعة ماء ، ألا تبت أيديهم أولاد الأفاعي ، وبعدها يأتي الاعتذار " عن كل إزعاج وهذا تم عن طريق الخطأ " . أي خطأ ؟ كيف كان من الممكن أن يكون هذا الخطأ ؟ أن يتم هذا الخطأ بكل تفاصيله النابية ؟ وكيف يكون من الممكن محو هذا الخطأ ؟ إنه ليس مجرد " خطأ " ، إنه التجسيد الوقح الملخص لواقع انتهاك حرمات العراق ، المستمر والسادر في غيّه، أرضاً وتراثاً وتاريخاً ، إنه التنويع المضاف والمبتكر للإذلال والاستباحات، بعد فضائح سجن أبو غريب ، والقتل العشوائي ، والحصار، والتدمير الجماعي والجمعي ، ودهس المساجد والكنائس والمراقد ونهب المتاحف ، وإغراق الجميع في لجج فتن التحزب والتعصب والشد والجذب ومحاولات خلع الظفر من اللحم وفصل أعضاء الجسد الواحد ، البدن الواحد ، والصرخة الواحدة للبلد المطعون من قبل

ومن بعد : " حاه ... شو وسع جرحك يا عراق ... جرحك يا عراق بعطابه ما يلتم " .

بكى من بكى ، واحتج من احتج ، استعظاماً لنشر صور الطاغية بائع العراق ، صدام حسين أسير الحرب المحروس بالرعاية الأمريكية ، وهو يغسل ملابسه واعتبروها انتهاكاً ، وهي في حقيقتها عبرة لمن يريد أن يعتبر ويتذكر وعد الله بأن يخيب كل جبار عنيد ، وقد تحقق وعد الله دائماً ، لأنه لا يخلف وعده . لكن الانتهاك الحق هو أن نرى عقلاً أميناً من العقول التي آثرت أن تتنازل عن راحتها ومتعها الثقافية والفكرية النظرية وتطوعت لتركب الأنواء ، إخلاصاً وتخليصاً للبلاد ، نراه محسن عبد الحميد تسوقه جنود قوات أمريكية همجية، تقلدت وجه جنكيز خان ، بدعوى استجوابه ، ثم تتبين أنها فعلتها " عن طريق الخطأ " .

الظاهر أن هذا الخطأ " المقصود " ليس سوى تحسس ، ومجس واختبار لمعرفة ما يمكن أن يتولد كرد فعل لفعلهم الشنيع ، بالإضافة إلى إجراء قياس مرغوب لعمق التهاون المرجو ، والتخاذل المنشود ، والتغاضي المطلوب عن القبضة الأمريكية الرابضة بعسكرها المحتل على صدر العراق ، هذه القبضة الوريثة والحريصة على استنساخ الوجه الصدامي ، والأمينة على فنونه في التعذيب وأفكاره الجهنمية في التفخيخ بالكلاب ، والتسميم ، بالبطيخ وغيره ، وحفر القبور الجماعية ، وكيف لا وهو منها وهي منه ؟ إنهم " جناكيز " العصر ، يجتاحون الديار ويعيثون فيها الفساد ويهلكون الحرث والنسل !

الدم بالعراق الآن غير مقطوع عن منبعه الأول

أكظم غيظي من إتاحة الفرصة لبائع العراق وحافر بئر مصائبها لكي يؤدي دور البطل في قفص الاتهام ، ذلك الدور الذي لم يفلح في أدائه حين كانت قوات الغزو الأجنبي تقطع العراق كما يقطع السكين قالب الزبد ، وهو لاه ، يثب ويغطس يلوح ويصفق له الخائفون . أكظم غيظي لإتاحة الفرصة له ليهاجم ، من يجلس في مكان القاضي ، ويتواقح بـ " من أنتم ؟ " من دون أن يجبر على احترام السلوك ، وعدم ازدرائه للمحكمة ، ومن دون أن يرد عليه بصلابة : ومن أنت ؟ تأدب لأننا مهما كنا ، نعبر عن رغبة الإنسان العراقي الحاضر والغائب ، والموتى في القبور وخارج القبور ، نحاكمك وأنت في غير حاجة إلى لعبة المحاكمة فسجلك معروف للقاصي والداني وجرائمك المادية والمعنوية أكثر وأكبر من أن تعد وتحصى ، وأنت لست رئيساً للعراق ، لا الآن ولا الأمس ، فأنت المغتصب غير الشرعي وغير الدستوري لمقاليد السلطة والأمور ، منذ قتلت زملاءك الكذا والعشرين غدراً وغيلة ومن دون محاكمة أو

فرصة لصبغ الشعر والوجه والقلب. بأي حق تتباجح بقولك : " أنا رئيس العراق " ؟ من انتخبك ؟ ومن صعدك ؟ من أنت ؟ لعبت دور " أبو طبر " – أي أبو ساطور أو سكين أو مطواة – على أكمل وجه يمكن أن يكون عليه وجه السفاح الدموي عاشق الفساد والإفساد ، المتلذذ بإهدار كرامة الأعزاء وإهانة الضعفاء . تقول ما بني على باطل فهو باطل ، والله إنها لحكمة تخرج من فم من اعتمد الباطل وجعله دستوره وقانونه يسود به ويسيّد به أعوانه الذين نشطوا معه في إعلاء كلمة الباطل على أرض العراق وأهل العراق وتاريخ العراق حتى جأر الحق بنداءات الاستغاثة : " اشتروني يا مسلمين .. اشتروني يا عرب ! " : وكان النداء لمستمعين " والقلب في صمم " .

العراق الآن في مصائب ، نعم ، نعم ، لكن من الذي أودى به إلى كل هذه الحمم والزلازل والأعاصير وكسوف الشمس وخسوف القمر؟

رجاء لا تقلبوا صفحة صدام حسين ، فهي ليست صفحة ، إنها مجلدات لم يعف عليها الزمن ولن تمر أبداً مرور الكرام .

صدام لم يهدم لي بيتاً ، ولم يقتل لي ابناً يافعاً ملت إلى عنقه أقبل مكان ذبحه ، وهو في درج من أدراج مشرحة ، ولم أرغم على دفع ثمن رصاصة قتلت لي عزيزاً ، ليس بيني وبينه ثأر شخصي ، لكن بيني وبينه مكتبة تحوي كتباً إمتلأت بصور ضحاياه من علماء المسلمين باختلاف مذاهبهم ، وحكماء الصابئة وقساوسة الكنائس ، تركمان وأكراد وعرب وخلافه . بيني وبينه وجع القلب الذي صار مخزناً لآهات مكتومة

تكدست ولم تتمكن يوماً من باب خروج نحو فضائية إعلامية تقول لها : أوراق الشجر الزاهية تخفي فوهات الدمار والخراب والذبح وتكسير العظام وسحب الروح والعزة .

صدام حسين ليس تاريخاً انتهى يا سادة ، إنه الإثم والذنب والخبث الضارب أطنابه إلى مدى لا يمكن لأحد ، حتى الآن ، أن يتكهن بنهايته .

كل هذا الدم بالعراق الآن غير مقطوع عن منبعه الأول الذي شقه وأجراه هذا الذي ما زال يتصور ، بجنون عظمته ، أنه رئيس العراق .

أوقفوا تمثيلية البطولة الزنخة هذه ، وألزموا المجرمين بالأدب المفروض عليهم داخل قفص الاتهام ، ولا تأخذكم بهم رأفة في دين الله ، الذي هو : حق الإنسان في القصاص العادل .

حاشا للّه يا أستاذة عائشة : صدام هو موسوليني وليس أبداً عمر المختار !

في يوم جلسة ٢٨ / ١١ / ٢٠٠٥ من محاكمة عصابة السفاحين تحت قيادة صدام حسين ، قالت الأستاذة عائشة القذافي في لقاء معها على قناة الجزيرة : أن المحاكمة مهزلة ، وأن محاكمة صدام حسين تذكرها بمحاكمة موسوليني للشهيد المجاهد عمر المختار . وإنني في غاية الدهشة أن تتفوه عربية ، ناهيك عن ليبية ، بمثل هذا الظلم البين ، والإهانة البالغة ، ضد رمز جليل من رموز مقاومة ليبيا إبان بطش الاحتلال الفاشستي الإيطالي الذي سلطه عليها الطاغية موسوليني.

المقارنة الحقيقية تنعدل بمساواة صدام حسين بموسوليني ، وبوضع شهداء المقاومة العراقية ، أيام الحكم الصدامي ، وعلى رأسهم العلماء والفقهاء ، في ميزان خالد الذكر عمر المختار .

لا أدري بأي حيثيات منطقية أو تاريخية رأت الأستاذة عائشة القذافي ، عضو هيئة الدفاع عن قاتل شعبه صدام حسين ، التشابه بينه وبين عمر المختار ؟

هل حكم عمر المختار ليبيا ٣٥ عاما أباد أثناءها أهله وناسه وحفر لهم المقابر الجماعية وصادق خلالها مخابرات موسوليني ، كما فعل صدام حسين بصداقاته المشبوهة مع رامسفيلد وغيره ؟

هل سرق الشيخ عمر المختار البنك المركزي ووضع أرصدة البلاد من الذهب والعملة الصعبة في حاويات خباها في " عبّه " ، كما فعل صدام ؟

هل كان لعمر المختار بيت أكثر من خيمته المتقشفة بين فقراء عشيرته ؟ التي صورها لنا مصطفى العقاد في فيلمه الشهير ؟ هل خدعنا مصطفى العقاد وأخفى عنا قصور عمر المختار وصور بدلا عنها موسوليني بقصوره وطغيانه وجبروته وقسوته الحاسمة المجنونة التي تشابه معها سجل صدام حسين الملآن بجراح ضحايا لم تلتئم أوجاعها بعد ، لولا أن موسولويني كان يبطش بغير أهله وبأقوام لا تمت إليه بصلة دم أو دين أو عقيدة ، في الوقت الذي لم يتحرج صدام عن سحق قومه وأمته ؟

لقد مد موسولينى يده ليغتصب ليبيا وغيرها ، فهل مد عمر المختار يده ليحارب مصر وما جاوره من بلاد عربية ومسلمة ، كما فعل

" موكلك " صدام حين استباح إيران والكويت ، بعد استباحته العراق نفسه؟

قولي لنا يا أستاذة عائشة القذافي عن وجه شبه واحد بين صدام حسين ، الذي أهلك حرثنا ونسلنا ، وبين شهيدنا عمر المختار رحمك الله !

كيف يمكن أن يختلط التشابه بين دكتاتور حاكم ظالم سفاح مثل صدام حسين ، وبين عالم فاضل ومقاوم تقي فدائي شجاع نبيل مثل عمر المختار ؟

اللهم اربط على قلوب أهل الضحايا المكلومين حتى لا تقتلهم هذه المحاكمة " اللطيفة " كمدا .

جرائم اغتيال وقتل وتفخيخ بالقلم والكلمات

إذا كان الجميع قد اتفقوا على رفض وإدانة القمع والإرهاب ، فإن الإدانة يجب أن تتم على المستويات كافة ، وإن أبشع أنواع الإرهاب هو ذلك الذي يستند إلى قوة السلطة ، التي تكون أجهزة الدولة بإمكاناتها الضخمة تحت يدها مجرد أداة طيعة تتحرك من فورها بلا عقل كالوحش الآلي المبرمج على السحق ببرود منفذاً الأوامر الشاذة لمن بيدهم ضغط أزراره أو إدارة مفاتيحه .

وإن كنا نعرف أن إرهاب الدول درجات : فمنها من تكتفي بالسجن والتعذيب ومنها من لا يشبع بأقل من أكل لحم مواطنيه أحياء حتى ينطبق المثل : " من يرى الموت يفرح بالسخونة " ، أي من يرى الإبادة والتصفيات الجسدية يحمد الله على الاعتقالات والسجن فقط، إلا أن إرهاب الدولة يظل إرهاباً مركباً أكثر جوراً وتعقيداً ، ذلك لأن الدولة – وهي الملجأ الذي يلوذ به المواطن لحفظ حقوقه – تصبح بالعة لأبسط الحقوق الإنسانية لمواطنيها ، تصبح نافية لحق أن يعيش المواطن آمنا

مطمئنا محفوظ الحرمات تحت ظل قانون ، يعرف المواطن أنه بقدر ما يحميه يحمي البلاد منه ، وفق قواعد وأصول مرعية . وحين تعصف الدولة ، المفترض أنها الأعقل والأرصن والمالكة لغضبها ، لأنها مجموع العقل القيادي ، حين تعصف بأمن مواطنيها وتسلط عليهم وحوشها الآلية وفق أهواء وغضبات مسئولين كبار ، من المحليين أو " العولميين " ، فيجب أن نعرف أن هناك من المواطنين من يشبهون ، في أهوائهم وغضباتهم وانفعالاتهم ، هؤلاء المسئولين . وإذا كان إطلاق الأعيرة النارية غيلة على السائرين في الطرقات جريمة نكراء وتستحق العقوبة القاسية ، فإن إطلاق الأعيرة النارية والكلاب المتوحشة لتعذيب أو قتل المعتقلين ، الأسرى العزل الأمانة في عنق الدولة ، جريمة مماثلة ، إن لم تكن أكبر ، وهي تستحق أيضاً العقوبة القاسية .

إن ممارسة التعذيب على المعتقلين هي شروع في قتل ، والقاعدة الإسلامية تقول : "لا حدّ على معترف بعد ابتلاء" ، أي لا عقوبة على من يعترف تحت وطأة التعذيب ، ناهيك عن هؤلاء الآلاف خلف الأسوار منذ سنوات من دون تهمة أو قضية أو أحكام قضائية ، فقط إنهم ضحايا فلسفة : " الضربة الأمنية الاستباقية " ، التي تعني : " أنا أسجنك على شأن يمكن تقل أدبك ! " .

والقتل ، بالمناسبة ، لا يعني فقط القتل بالرصاص ، فهناك جرائم قتل واغتيال وتفخيخ بالقلم والكلمات ، وهذه الجرائم يمارسها بعض كتابنا : " المحترمين " بلا روية ولا رحمة . هناك من الكتاب

العلمانيين من يحرض صراحة على كتاب إسلاميين ، فوابل رصاص الكلمات انهمر وينهمر على التيار الإسلامي كلما أراد أن يقول : إني هنا في شارع الناس ولي ثقلي وعندي للوطن أحلام ورؤية ووجهة نظر . هناك بين العلمانيين كتاب : " قتلة بالنوايا " ، يمارسون الإرهاب بالكلمة ويستعدون السلطات على تيار في الأمة راسخ ، ويسدون النصيحة ، للمسئولين المحليين و " العولميين " ، أن ابطشوا ، واجهضوا ، ولاحقوا، وأقلقوا المضاجع ولا تتوانوا .

إن كلمة " الإرهاب " كلمة مطاطة ، ألقاها الأعداء كرة مسمومة على المسلمين ليشوهوا الجهاد في فلسطين أولاً ، وسائر بقاع الأرض التي تحاول فيها الأغلبية المسلمة الإفلات من ذيل التبعية ليستعيدوا للإسلام موقعه وثقله الإنساني والسياسي على مائدة المجتمع الدولي .

أيوه أيوه ، نعم : احكوا لنا عما حدث والشريعة الإسلامية تحكم، على مدار الزمن الإسلامي ، وقولوا عمن قتل وعمن ظلم ، لكن لا تنسوا ، حضراتكم ، الذي حدث عندما لم تحكم !

تأمل في حديث رغد صدام حسين
في ذكرى سقوط والدها

تشدني السيدة " رغد صدام حسين " ، مواليد ١٩٦٨ ، لمشاهدتها فهي تملك وجها له حضور ، ولدينا في مصر ممثلة شابة تشبهها كثيراً اسمها " منة شلبي " ، أرشحها لأداء دور السيدة رغد ، لو كان في نية أحد إنتاج سينمائي لفيلم جديد لاحق بفيلم " الأيام الطويلة " عن مسيرة الوالد .

كل فتاة بأبيها معجبة ، هذا حق ، والسيدة رغد ابنة صدام حسين ، وهي كذلك ابنة مفهومات مختلة تربت عليها حول معنى الشجاعة ، ودلالات البطولة ، وماهية الوطن و"الرمز" و"القدوة" .

تحكي " رغد صدام حسين " بصدق واضح لحظات هروبها وأمها وشقيقاتها من العراق حين كانت قوات الغزو الأجنبي تتقدم حثيثاً لاحتلال " الوطن " يوم ٩ / ٤ / ٢٠٠٣ – لم تتطوع للدفاع عن الوطن رغم أنها تملك مسدساً ورشاشاً وتجيد استخدامهما ـ

تلمع عيناها وهي تذكر بفصاحة وتفاصيل كيف تلقت تعليمات الوالد أن " اهربوا " ، وكيف تنقلت من مزرعتها إلى مزرعة الوالدة إلى مزرعة الخال ومزرعة الأخت ، معذرة لقد ضعت تماماً بين كل تلك المزارع الموزعة على أفراد العائلة ، وهذا القصر ، وهذا البيت ، وذاك ، وتلك ، والسيارات ، والحراس ، والخنادق العسكرية ، التي تعلمت أنها مكان الاختباء الآمن من القصف ، وأوامرها التي تم تنفيذها ، رغم المستحيل ، لاعداد خندق فوري نفذه لها رجال الحماية المكرسون لرهن إشارتها . تواصل كلامها باعتداد وثقة عن اكتشافها أنها كانت "مستهدفة"! في ليلة كانت بغداد تضرب والوطن بأكمله " مستهدف " ، تتكلم رغد صدام حسين عن أنها كانت " مستهدفة " !

في ليلة كانت العيون شاخصة تتساءل أين " الوالد " وأين " دفاعاته " وأين " حماة الحمى " ، كان حضرته مشغول بتأمين الوسائل لتهريب أسرته ، وله عين بعد ذلك ليقول "عراااق" و"عراااقي" منتحلاً في المحكمة ، أمام عدسات النقل الفضائي ، دور الذي استبسل في الدفاع عن " الوطن " ضد جنود " الاحتلال " ، كأننا لم نره يستسلم لجنود الاحتلال وهم يشدونه من حفرة مخبئة . تقول رغد صدام حسين عن عمها ، الذي ظل يهلل بسوقية متناهية وهو بملابسه الداخلية ، في قاعة المحكمة يطالب بالعلاج والعناية والراحة ، تقول عنه : عمي الشجاع البطل ، والعم هو العم . صحيح ، هذه لديها هي الوشائج التي تعلو فوق كل اعتبار ، ولو كان اعتبار الرحمة والعدل والإنسانية لعموم أهل العراق

وشيوخه ونسائه وأطفاله المحروقين بالقنابل المحرمة ، والشاهدين شهداء في المقابر الجماعية .

تبتسم رغد صدام حسين وهي تشير إلى استتباب " النظام " أيام سلطة الوالد ، و"الفوضى" التي تراها الآن تعم البلاد . نعم يا رغد مؤسف جداً ، موجع جداً ، محيّر جداً هذا التناحر بسلاح نسف مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، إنها أفعال بيد تشبه تماماً يد " النظام " ، كأنها هي ، أيام سلطة الوالد غير أنها كانت تنفذ بوسائل " منظمة " و " كاتمة للصوت " ، طبق الأصل : التفخيخ والتدمير والهدم والخطف والاقتحام و " استهداف " أمن الوطن ومصالحه وثرواته .

تسخر " رغد صدام حسين " من ذاكرة الشهود على جنايات سلطة الوالد ونظامه ، وتقول أنها لا تتذكر الكثير الذي مر بها منذ ثلاث سنوات ، فكيف يتذكر هؤلاء حوادث مرت منذ أكثر من عشرين عاماً ؟ " رغد " لم تعرف الظلم على حقيقته وفحشه لذلك فهي لا تصدق "ذاكرة" المظلومين التي ستظل ، بكل يد مضرجة ، تدق الأجراس تلاحق الطغاة والبغاة واللصوص والسفاحين إلى يوم القيامة ، أينما كانوا ، ومتى كانوا ، على كل أرض وفي كل وطن .

بسذاجة ، أو بزلة لسان ، شككت " رغد " في المشاهد التلفيزيونية التي تعبر عن الرفض الشعبي للوالد ، لأنها تعرف ، بالخبرة السابقة أيام " سلطة " الوالد ، أن هذه المشاهد والتقارير والأخبار يمكن

أن تزور وأن تلفق . مرجعية موثوق بها طبعاً ، من ذا الذي يكذب "رغد" في شهادتها على تلفيقات " الوالد " ، وتزويره الإرادة الشعبية ، بل والحزبية ، التي يدعى أنها اختارته اختياراً حراً رئيساَ شرعياً للعراق بعد مذبحة " الرفاق " ؟

لقد نبهتنا " رغد صدام حسين " – بحديثها الذي بثته قناة العربية مساء ٢٠٠٦/٤/٩ إلى أن أول قضية يجب أن يحاكم عليها " صدام " هي قضية إهماله الدفاع عن الوطن وحماية العراق ليلة الغزو بينما كان كل همه وانشغاله موجهاً لتأمين سلامة العائلة وتسهيل خروجها بمسروقات البنك المركزي والحاويات الممتلئة بالكنوز ، المملوكة للشعب العراقي ، حتى تتمكن "رغد" من الاستمرار في العيش مرفهة ، مدللة ، لا تجد بأساً في الاستعانة بالصلاة ، والبكاء في السجود، وقراءة آية الكرسي ، كما تقول ، غير متحرجة ، ولا متأثمة ، وهي بين يدي الله تدعوه سبحانه وتعالى أن يكتب لها النجاة وللوالد وللأعمام ، رغم ما اقترفت أيديهم من المظالم والجرائم والسرقات والخراب والويلات التي تئن منها البلاد : " صنعة إيديهم وحياة عنيهم " !

الأجدى أن تخشع لله ، وتستغفره وتسأله النجاة بـــ " التوبة " ، فهو الغفور التواب الرحيم .

الفئران تلعق من دمائنا حساءها

هذا العنوان مأخوذ من صورة شعرية دقيقة وموجعة جاءت في قصيدة أمل دنقل "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" ، التي كتبها في وقت هزيمة حزيران / يونيو ١٩٦٧ ، حين قال : " الفئران تلعق من دمي حساءها ولا أردها " ! هذه الصورة تقتحمني هذه الأيام ولا أملك الفرار منها . لم أعد أفهم ، والعراق يحاكم المسئولين عن مذابح " الدجيلة " ، كيف يتم تبرير إطلاق اليد الأمريكية لذبح " الرمادي " وترويع أبريائها ؟ كيف تتم هذه الإبادات ، المتنقلة على خريطة العراق ، بحجة " محاصرة المسلحين " ، هل من أجل إزالة شر ترتكب كل الشرور ؟ الصور أمامنا جميعاً ولم يعد هناك من يحتاج إلى شرح أو كلام ، اللهم إلا هؤلاء المغرمون ببث الرسائل السلبية إلى وجدان الأمة لسلبها الوعي بحقها في النهوض وصد الفئران اللاعقة ، بتلذذ ، دماءها .

التاريخ يعيد نفسه إلى درجة الملل . لا أحد يتعظ ، لا أحد يتعلم، لا أحد يستفيد . تعاقبت الحروب على بني البشر ، ونالوا من ويلاتها

الكثير ، لكنهم ما أن يقوموا من حضيض كارثة حتى ينهمكوا في التخطيط لكارثة أسوأ ، رغم معازف الحكماء والعقلاء الذين لم يتوقفوا عن ترديد ما خلاصته : " الحرب وبال للمنتصر وللمنهزم على حد سواء"، وما صاح به الكورس اليوناني منذ ٢٦ قرناً : " يا ويلتي ما أفدح انتصاري !

في ظل كل هذا التوتر والعصبية والتربص الذي تشيعه تهديدات وتحرشات أمريكا لضرب هذا وذاك لتغيير خارطة الشرق الأوسط ، والوطن العربي ، والأمة الإسلامية ، وفقاً لأهوائها الجشعة وشعاراتها السوقية المبتذلة ، تمهيداً لتأكيد هيمنتها الامبراطورية على الكرة الأرضية والتحكم في مقدرات سكانها ، وإخضاع الكافة لميزانها المطفف، ومكاييلها السارقة ، استغرقت في قراءة عدد من مجلة الهلال صدر بتاريخ أول يوليو عام ١٩٤٠ . كان عدداً خاصاً عن " الحرب " ، بمناسبة انضمام إيطاليا موسوليني إلى جانب ألمانيا هتلر ، الذي أشعل الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ واستطاع أن يبقر بطن أوروبا ويتوغل في أحشائها بدعوى إفساح المجال الحيوي للشعب الألماني للتغلب على الوضع الجغرافي " المطوق " لألمانيا ، وبناء عليه التهم هتلر، خلال فترة وجيزة ، النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والدانيمرك والنرويج وبلجيكا وهولندا وفرنسا حتى تهددت انجلترا ، التي كانت الإمبراطورية العظمى المحتلة لبلاد عديدة لا تغربْ عنها الشمس .

اختارت انجلترا في لحظة الخطر ونستون تشرشل رئيساً للوزراء في مايو ١٩٤٠ ليقود جبهة الحلفاء ضد ما تم تسميته دول

المحور بقيادة ألمانيا هتلر ، وكان تشرشل قد وقف يقول في مجلس العموم البريطاني : " ... فإني لست أذكر يوما من أيام الحرب الماضية كنا فيه أدنى إلى الخطر وأقرب إلى الزوال مما نحن فيه اليوم " !

كانت انجلترا في ذلك الوقت تحتل " مصر " ، ويقيم بالقاهرة مندوب احتلالها "المعتمد البريطاني" ، يحكم بلادنا علانية وفي الخفاء ويؤكد بوضوح لكل الأطراف أنه السلطة الفعلية العليا بها . ورغم أن الشعور الوطني العام ، في ذلك التاريخ ١٩٤٠ ، كان قد بلغ ذراه في كراهية هذا المحتل الغاصب المذل لكرامتنا ، ويرى أننا لا ناقة لنا ولا جمل في صراع هذه الحرب بين معسكرين مجرمين يتنازعان الأسلاب والسرقات ، وقد ترسخ في أعماق أهل مصر، عبر السنوات المهينة المريرة ، معرفة الكذبات المفضوحة للافتات " الحرية " و " الديمقراطية " و " الحضارة " التي كانت أجهزة الدعاية البريطانية تصرخ بها ، مع حلفائها وأذنابها ، مؤكدة إدعاءها أنها تدخل الحرب لتحمي " الإنسانية " من بطش النازية ووحشية الفاشستية ، إلا أن الأمر لم يخل من أصوات عربية ومصرية وقفت تساند أكاذيب " الامبراطورية البريطانية " ، ونشرت هلال ١ / ٧ / ١٩٤٠ صوتاً من تلك الأصوات النشاز ، التي لا يخلو منها زمن من الأزمان ، بقلم الأستاذ سامي الجريديني ، استغرق ٥ صفحات يهتف بإنسانية المحتل القاتل لبلادنا ! انتخبت " الهلال " مجموعة من أصحاب الأقلام ، نجوم عصرهم ، وحددت لهم الكتابة في موضوع " الحرب " ، كان أعمقها ما كتبه الدكتور أمير بقطر ، رئيس

قسم التربية بالجامعة الأمريكية تحت عنوان : " التطورات الاجتماعية المنتظرة بعد الحرب الحاضرة " .

لم يظهر الدكتور أمير بقطر انحيازه لأي كتلة أو معسكر ، بل إنه بدا مزدرياً لكل مظاهر الحماس المواكب لملعب الحرب ومقولات الزعماء في عصره وما قبل عصره . كتب بسمت العلماء الهادئ ، وإن لم يخف شبح ابتسامة تهكم تعتريه بعد كل جملة طنانة يوردها مقتبسة من غيلان الحرب على كل جانب . طرح د . بقطر تساؤله الجوهري : " ... ما عسى أن نتوقعه من التغييرات الاجتماعية الخطيرة التي تطرأ على الأمم والأفراد ؟ " ، ثم قسم إجابته إلى : " أولاً : من ناحية الحرب والسلام والخلق الأممي " ، ويورد من أقوال اللورد كتشنر في الحرب العالمية الأولى – (١٩١٤ – إلى ١٩١٨) – قوله : " الاعتدال في الحرب غباوة ، فإذا ما خضنا غمارها وجب أن نوطد العزيمة على ربحها بأي ثمن كان ، فلا الحقوق الشخصية ، ولا شرف الفروسية ، ولا وخز الضمير ، يلزم أن يكون حائلاً بيننا وبين النصر " – (!؟) – ويبين د. بقطر أن الناس في فترة السلام تنسى الصيحات الخشنة . " ... تلك العاطفة الحيوانية الوحشية التي لا يزال الإنسان يكنها نحو أخيه الإنسان رغم العلم والنور والمدينة ... يقولون أن الكذب مباح في ثلاثة : الحرب والصيد والانتخابات ، بيد أن بعض الشعوب قد غالت أخيراً في احترام القانون الدولي ومراعاة الآداب الاجتماعية ، فكادت تروح ضحية غيرها من الشعوب التي لا ترعى للصدق حرمة ، ولا للأمانة ذمة ، والتي جاهرت في مناسبات شتى أن الآداب الاجتماعية لا يمكن تطبيقها على

الشئون الخارجية ... " ! ثم يواصل : " ... أعتقد أن العالم كله سيجعل البنادق والقنابل عمدته ... " . يقول د . أمير يقطر في " ثانياً " : ... هذه الأداة الديمقراطية لابد أن تتمشى والعصر الحاضر فيتناولها الكثير من الصقل والتعديل ... وتحديداً جديداً لمعنى الحرية ، وستسفر الحرب الحاضرة عما أقول ... ثالثاً : من الناحية الاقتصادية... البؤس ، والفقر المدقع ، والقحط ، والشقاء ، وضيق العيش ، وغيرها من الولايات ستضرب أطنابها في بلدان العالم ... إلا أن عوامل البؤس هذه المرة ستظل ناشبة أظفارها عشرات عديدة من السنين ، وستقبض الحكومة بيد من حديد على موارد الثورة وتثقل كواهل ذويها بالضرائب الفادحة ، وتتغلغل في الحياة العامة ... وبتعبير أوضح ستضطر الحكومات ، حتى أشدها ديمقراطية ، بالأخذ بشئ من المبادئ المشتركة بين الفاشية والنازية والشيوعية المعروفة اليوم ... رابعاً : ... دل تاريخ الحروب على أنه سرعان ما تضع الحرب أوزارها حتى تكتسح بلدانها موجة طاغية من الانحلال الأدبي والتفكك الخلقي ، خصوصاً في أعز ما يتمسك به الناس عادة من العناصر ، وأشد ما يحرصون عليه من مبادئ ... وليس هذا بغريب من الناحية العلمية ، إذ أن الطبائع الإنسانية ... الوحشية ... تأخذ في الظهور في أبشع صورها وأخشن ملامسها ، كلما طعنت الأزمات طمأنينة الإنسان في الصميم ، وهددت كيانه . وهذه الحرب لابد أن يختل في ختامها ميزان العالم من الرجال والعتاد ، فتصبح الملايين من النساء بغير رجال ، ويصبح الملايين من الأطفال بغير آباء ، وتباع الكرامة وعزة النفس بأبخس الأثمان ... ستظل هذه الفوضى

أعواماً لا يعلم إلا علام الغيوب عددها ، وتظل العناصر الاجتماعية تتفاعل كمواد الكيمياء حتى يصفو المزيج ... "

ما أشبه اليوم بالبارحة ، إلا أن تحليل د . أمير بقطر لم يدر في خلده ما تفتقت عنه العقلية الإجرامية الأمريكية لحل مشكلة " النساء بلا رجال " و " الأطفال بل آباء " ، وذلك بقتل النساء والأطفال في عمليات " الإبادة " المنهجية المسجلة باسمها في براءة الاختراع التي سوف يحفظها لها التاريخ في صفحات العار .

معذرة ولكن : ماذا بوسعي أن أقول ؟

فوق طاقتي كل هذا الظلم الذي نعاصره . يضربنا العدو وتجد من بيننا من تشتد به الحماسة ليؤكد أننا السبب والمسبب ، وأن الضرب بالنهاية ليس اختراعاً أمريكياً ولا صهيونياً. فصيل بيننا مهمته بث الرسائل النفسية السلبية لتنخر في عظامنا تحت لافتة " النقد الذاتي " ، لكنها لا تخرج عن كونها " عقدة اضطهاد ذات الأمة " . لا أدري ما كل هذا التلذذ بإدانة النفس لصالح الدفاع عن أعداء يتجشأون كراهيتهم لنا بوجهنا صباح مساء ؟ حين تنتقل فرق الإبادة الأمريكية على أرض العراق بالطول والعرض ، وتغتصب الصبية وتقتل مع أمها وأبيها وأخوتها ، أيجوز أن نقول : لا بأس ، لقد فعل صدام حسين ذلك من قبل؟ وهل أعجبنا فعل صدام حسين ؟ وهل ساد بجرائمه ؟ وهل حسبناه من " بعضنا " حتى نقول إن جرائمه من اختراعنا ، وأننا قد ألفناها وأتلفنا معها ، بحيث لم يعد يدهشنا أن تلعق الفئران من دمائنا حساءها ؟ من

قال صدام حسين كان" نحن " ؟ ومن قال أن أمثاله ، الذين روعونا وسلطوا علينا التنكيل ، والمقابر الجماعية ، كانوا " منا " ؟

لا تتنازل أمريكا عن مقولة : " من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها " ، ولو بقصف شواطئ التنزه وخطف النساء والصبية والأطفال عنوة من بيوتهم ، باعتماد قرار جائر ، لا رجعة فيه ، بأن " حماس إرهابية " ، والشعب الفلسطيني الذي انتخبها عليه أن يعاقب على اختياره، ومن ثم أصبحت إسرائيل في استباحتها للمدنيين والعزل : " معها حق " . وحين تتجاوب الأقلام مع صرخات : " آآآباه ... ياباااااه "، يقوم من بيننا من يدافع عن منطق أمريكا والاتحاد الأوروبي وصرخات إيهود أولمرت المتوحشة ، وقواد جيشه المسعورون الهاتفون على الملأ ما معناه : " ظفر الجندي العسكري الاسرائيلي برقبة كل الفلسطينيين وحكومتهم ، فهم جميعاً ضد السامية ، وجميعا حلال فيهم القتل والسحق والنسف ! " ، ونسمع لغة تسفيه متعالية مضمونها : " شوفوا ماذا تفعل الفصائل الفلسطينية مع بعضها البعض ! " وقبل أن نفتح فمنا لنقول : " وهل تبرر الأخطاء الجرائم ؟ " ، يخرج من يتفذلك ، ببلاغة شريرة ، عن " الآخر " الذي لا يجوز أن نرفضه ولا يجوز أن ندينه وإلا أصبحنا مسئولين عن "ثقافة الكراهية " ، التي يشهد التاريخ أنها من اختراع الغرب الفاشستي / النازي / الصهيوني/ العنصري ، وذلك لكي نتحول إلى معتذرين نلوم أنفسنا ليلاً ونهاراً ، لأننا اخترنا طريق التهلكة وامتلائنا بالرغبة في مقاومة قاتلينا ! والمؤذي أننا حين نستسلم يهب من سبق

وعايرنا بالمقاومة ليصفعنا بشماتة منددا : يا خايبين يا خانعين ، شايفين إسرائيل واقفة كلها قلباً وقالباً تدافع عن جندي صغير واحد ، أو كما قال القائل : " هل عيب أن نعجب بأعدائنا ؟ أنا معجب بإسرائيل ... أنا معجب بهذه الدولة التي تحرك جيشها لهدم البلاد فوق رؤوس أهلها لأن جندياً من جنودها المغتصبين اختطف ، بينما نحن الذين اعتدنا على صفع الأقفية وتدلي الأعناق والقبول بالإهانات دون رفع الوجوه لرؤية – حتى – من يصفع ، وما فائدة أن تتأكد من ملامح من يصفعك إذا ما كنت لا تنوي رد الصفعة ... " – من يوميات عبد الرحمن الأبنودي ، بجريدة الوفد ، ٦ / ٧ / ٢٠٠٦ ، الصفحة الأخيرة . ولا نجد صبراً ولا عافية لندخل في مهاترات حول بدهيات مثل : وهل تقف إسرائيل وحدها؟ أعميتم عن جيش أمريكا والقوات المتعددة الجنسيات معها ومؤتمرات الدعم لتأييدها وهي تهدم البلاد فوق رؤوس أهلها ؟

ومتى اعتدنا صفع الأقفية ... إلخ ؟ هل اعتادها أطفال الحجارة الأسرى في سجون الدولة العدو المعجب حضرته بها ؟ هل اعتادتها المقاومة التي لم تكف يوماً عن كشف وجوه شهدائها المرفوعين فوق أكتاف آبائهم وأمهاتهم وشقيقاتهم ، المزغردات بإباء في عرس الحق الرافض لإهانة الاحتلال ؟ ولا أعني " المقاومة " و " الانتفاضة " التي بدأت منذ يوم أو يومين أو سنة ، بل أذكر بالمقاومة التي لم تتوقف لحظة منذ أكثر من قرن ، من قبل ١٩٣٦ حين هب أهل فلسطين يتنادون

بالجهاد ضد التسلل الصهيوني ، بل ومن قبل وبعد بلفور ١٩١٧/١١/٢ ..... آآآآآآآه !

متى سكت الناس ومتى استكانوا وكيف ؟

نعم : هناك من انحازوا إلى الأعداء وارتضوا أن يكونوا بأيديهم سلاح قتل لذويهم ، لكنهم كانوا " منا " سابقاً وصاروا : " هم العدو " الذي علينا أن نحذره حتى لا يزيدنا خبالاً .

تهديد الوحوش غير المرئية

سحب رمادية تتجمع وتتكثف مائلة رأسي بلونها الداكن . أحمل الثقل وأتمنى هطول الدمع . تجذبني مساحة الصمت فأجدني في عنفوان التوتر . ألوذ بغرفتي معادل الرحم لأكون بداخلها الجنين الذي لا يرغب في الميلاد توقا إلى النكوص نحو قبل البداية ، ليست مناشدة للموت لكنها مناشدة للمستحيل ، مناشدة ياليتني لم أكن لكن كينونتي كانت فتخضع هامتي وأحمد الله مسلمة له وجهي فيغسله الندي .

***

الفيانيجاتيفا ، اقترحها جروتوفسكي في مسرحه الفقير ، الإلغاء، توفير الجهد ، الاقتصاد في الاحتياج ، كبح الثرثرة ، التلخص في الضرورة بعد تكثيفها لكيلا تشغل إلا الحد الأدنى في الحيز ، التحرر من الترف والسرف وسوقية التخمة . أدار جمال حمدان ظهره للضوضاء ليتبتل في حياة الضرورة المختزلة . لم ينعزل جمال حمدان لكنه عزل الضجيج عن مكتبه وأبحاثه واختار صحبته بعناية : القلم والورق والعقل

المتوهج المتفاعل في الردهات الرحبة لعمائر الفكر . حدد الاهتمام وبلور الجوهر فتوضح لديه الملغي وتخلص من وطأة الحمولة الزائدة والزحام الكاذب ومهاترات الجدال النافق . حوّل الموقف الشعري من فكرة مجردة إلى واقع عاشه والتزم بالنظرية الصعبة حياة يومية وتفرغ لتدوين الدفاع عن ذات الوطن / الأمة ، لتحصينها بالرسائل الإيجابية في مواجهة العدوان الداخلي والخارجي ، الأهلي والأجنبي ، لكن الضجيج تسرب إليه رغم تحوطاته ، تجسد في مؤامرة لاغتياله أخذت شكل اسطوانة غاز تحمل هوية الضمائر غير المكترثة . آه لو أنه كان قد استغنى عنها ولو بحك حجرين ليولدا موقداً من عصر الإنسان الأول !

***

كانت السباع والضباع والذئاب والأفاعي والعقارب وغرائب الوحش في البر والجو والبحر ، مع الزلازل والبراكين والصواعق ، قوي التهديد لابن آدم حين حط على الأرض بيته، لكنه عرف الآن ، كذلك ، تهديد الوحوش غير المرئية : التلوث بكل مفسدات الماء والفاكهة ومالذ واشتهته النفس من أمن وطمأنينة . الذعر طوق ملتف حول الأعناق ، والجسد مرتع لمفاجآت المرض البغتة .

خذنا على كفوف لطفك يا ربنا ، ولا تحاسبنا بأعمالنا ، جازنا برحمتك ، فأعمالنا ، مهما أتقنا التضرع ، غير كافية .

***

تخايلني وحوش العصر غير هيابة للسباحة في بحار القسوة
تجعلها مداداً لمخالبها تنقش بها مخازيها : صور من القبح والدمامة لا
تغيب .
إلى الغرفة الرحم يصعد ضجيج الافتراس ، يزداد توتري لصراخ بين
النجاة والموت ، لا أملك دفع الأذى :
خذنا على كفوف لطفك ،
خذنا على كفوف لطفك .

إيش لونك يا مظفر النواب ؟

كلمة من هنا وخبر من هناك فهمت منه أن الشاعر مظفر النواب يعاني من مرض خطير ، وأنه حالياً يعالج في لندن أو دمشق . إذن فقد عرفت ، أخيراً ، ولو بالتقريب ، أين يحط مظفر النواب رحاله بعد أن ضاعت منا أخباره في الدنيا الواسعة ، محروماً من العراق ، حتى صار بذاته عراقاً كاملاً مفترشاً العالم ، مخترقاً الحدود ونقاط التفتيش مواصلاً الحسم : "جرح صويحب بعطابه ما يلتم ... " .

كان ديوان مظفر النواب " الريل وحمد " دائماً أمامي ، ولكني حين بحثت عنه امتلأت يدي بغبار مكتبتي ولم أجده . " مظفر النواب " ، شاعر الوجع العراقي العظيم ، قابلته لأول مرة عام ١٩٦٩ في دمشق ، ظل رحالة بين العواصم العربية ولا يمكنه العودة إلى بغداد ، إلى "شريعة النواب" ، المنسوبة إلى عائلته والمنسوجة في الغناء الشعبي العراقي .

في دمشق سوريا ، وفي القاهرة المصرية ، وفي طرابلس ليبيا، كان التقائي بمظفر النواب يأتي قدراً ، وكان غناؤه المتفجع ينتشله ، حين يبدأه ، من لمّة الجالسين ليحلّق به وحيداً عبر أزمنة الآلام العراقية جاذباً معه نداءات الاستغاثات البشرية . غناؤه داويا حتى الآن في أذني : " أضحك ؟ إيش لونك أضحك ؟ أبكي ؟ إيش لون أبكي ؟ " ينطق الضاد : ظاءا ، والكاف : شيناً ، وفقاً للهجة العراقية ، التي يصر بها العراقي على أن لغتنا العربية هي : "لغة الظاد" !

غناء مظفر النواب مغزول من النحيب والولولة الموسيقية الغائرة كالنصل في القلب . كتلة شعر وموسيقى وغناء ، كلها فنون مظفر النواب . الشعر شعره ، واللحن والغناء ارتجالات لحظية كنت أراها عرضاً مسرحياً لا مثيل له .

في ديوانه " الريل وحمد " ، الذي يعني " القطار وحمد " ، توجد قصيدته عن شهيد من الشعب ، هو كل الشعب ، اسمه " صويحب " ، تصغير لاسم عراقي شائع هو " صاحب " ، كنت كلما التقيت بمظفر النواب أبادره بمطلعها الصارخ في الباكيات : " ميْلا لا تنجطن كحل فوج الدم ! ميْلا ! وردة الخزامة تنجط سم ! " وهي كلمات ، مازلت أحفظها ، لأم الشهيد "صويحب" التي ترفض البكاء وتقول ما معناه : " ابتعدن ! لا تسقطن الكحل فوق الدم ! ابتعدن! حلية الأنف الوردة تسقط السَّم " ، وكان مظفر ينطلق بعد هذين البيتين بآه ملوعة حين يكمل : " حاااه! شو وسع جرحك يا صويحب ... " ،أي "آااه! ما أوسع جرحك يا صويحب ...

" حتى يصل إلى القطع بأن : " جرح صويحب بعطابة ما يلتم .. " ، أي أن جرح صويحب لا يلتئم بدواء أو ضمادة ! – ويعذرني العراقيون إذا كانت ذاكرتي قد أخطأت في كلمة مما ذكرت أو شرحت أو أسأت هجاءها لأن الديوان الذي كان أمامي قد تعمد الاختفاء !

ربما يكون مظفر النواب قد بلغ الآن السبعين أو تعداها بسنة أو سنتين ، غير أنه كان دائماً يبدو عمرا لا يتحدد بأيام الزمن وسنواته .

حين زرت العراق لأول مرة عام ١٩٦٩ علموني أن الموت عند العراقي هو : الهجرة، هو : النزوح ، هو ألا يكون بالعراق يشمه ويحتضنه ويواسيه . كان العراقي إذا انتقل من حي إلى حي ، في المدينة نفسها ، يشكو اغترابه ، أما أول ما تعلمته من غنائهم الشعبي فكان : " شي مالي والي ، بو يا اسم الله ، متعذبة بدنياي يا بابا ، شي مالى والي ... بطة وصادتني ، صدقة لله ، بشريعة النواب يا بابا ، بطة وصادتني ... " ، وهي أنشودة طويلة بلحن غاية في العذوبة ، حملتها معي عام ١٩٦٩ وعلمتها لكل أصدقائي المحبين للغناء في مصر ، وكان منهم وقتها الشاعر الفلسطيني محمود درويش ، الذي قال لي ، بعد ذلك بسنوات عديدة ، أنه كلما حضر حفلاً موسيقياً عراقياً طلب منهم غناء " شي مالي والى ... " التي صارت تذكره بوقته في مصر عبر ذبذبات الوجد العراقي !

وتلك الأغنية التي تعني : " كي أن ليس لدي حامياً ، متعذبة في دنياي ؟ " هي واحدة من أغنيتين شعبيتين عراقيتين تشعلان القلب حنيناً والصدر شوقاً وأنيناً – والسجع من عندي غير مقصود – والأغنية التي أعنيها هي : " يا زارعا بذر الجوش ، إزرع لنا حنَة ، وجمالنا غربت ، واويلي ، للشام وما جنّا ... يا محبوبي جرحتني داويني، جرحك يا قلب خزّن ولا تسكينة ، يا زارعاً بذر الجوش ، ازرع لنا حنة ... "

واللحن يمزق الحشايا بالشجن والشكوى أن جرح القلب قد امتلأ بالصديد ولا مواساة يمكن أن تهدئ من الألم . أليس هذا صحيحاً تماماً ، وبالنطق العراقي : " جرحك يا قلب خزّن ولا تستشينه " !

يا رحمة الله أغيثي .

الحكم بإعدام صدام حسين : يااه هَسّة طخّت ؟

اليوم ٥ / ١١ / ٢٠٠٦ صدر الحكم بإعدام صدام حسين شنقاً حتى الموت ! لم أملك سوى التعقيب بالمقولة العراقية ، على الأمور التي تتباطأ وتتأخر ثم تأتيك وقد فقدت معها الأمل فتخرج صيحة التهكم : " هاااه هسة طخت ؟!" .

على مدى ثلاث سنوات ، منذ القبض عليه بعد أن ولى قوات الغزو الأدبار ، فراراً ساعة الزحف ، وساعد قوات الاحتلال على التغلغل لإحكام القبضة على بلاد الرافدين ، ولم يكن له هم ساعتها سوى أن يرسل من يبلغ أهله بالهرب بينما يصدر الأمر لأهل بغداد بألا يبرحوا منازلهم وإلا ... ، (راجعوا تسجيلات ذلك الوقت) ، حتى لا يمكن المواطن العراقي ، من شرف الدفاع عن مدينته ، التي كان الأعداء يستبيحونها في سلاسة لم يعرفها تاريخ المعارك الحربية. وتمني ، وتحقق مطلبه ، من أن يكون أسيراً للأمريكيين ، ولا يتم تسليمه لشعبه العراقي ، حتى ينال ما كان يجب أن يناله .

دارت تلك المحاكمة البطيئة لطاغية ، كانت طلقات رصاصه تستقر في الأدمغة والجباه والقلوب قبل أن يرتد إليه طرفه . لو لم يكن لصدام حسين على مدار سنوات حكمه للعراق جريمة سوى تسهيله احتلال العراق ، لكفته عاراً وشناراً إلى الأبد .

لن أعلق كثيراً على الرطانة القانونية التي تناثرت بوجهي ، معددة ثغرات الحكم ، وأنا أتابع على الفضائيات الأخبار وردود الأفعال ، حتى كاد يضيع مني وقت صلاة الظهر ، والتي بدت لي مثل الدعابات الثقيلة ، وكان منها قول بعضهم أن النطق بالحكم كان يوم الأحد وهو يوم عطلة !

كنت أتمنى ألا يتم القصاص من صدام حسين في هذه الدنيا : يجب أن يلقى الله سبحانه وتعالى بملف جرائمه كاملاً ، فلا توجد عقوبة أرضية بشرية كافية توقع عليه تشفي صدور المجروحين وتذهب غيظ قلوبهم .

اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون

هذا العنوان أعلاه هو الصيغة الوحيدة التي استطاعت أن تجلسني لتدوين ما صَار يكتبه ذهني وقلبي منذ مذبحة بيت حانون ، منذ وجوه الشهداء التي ما فتئت تطل علينا من فوق الأكتاف التي تحملها إلى حيث تقف أمام الواحد الديان لينزل عقابه العادل على السفاحين ، ومنذ التراشق المريب بين تلك الأشباح على أرض العراق تقتل أهله وتدمر مقدساته وتسحق آماله بغد أفضل !

يقتلنا الأعداء ، مفهومة ، لكن ما هو ذلك الثأر المُتصوّر بين الإمام " أبو حنيفة " والإمام "موسى الكاظم"؟ من هو ذلك الباحث عن راحة في قصف " الأعظمية " وتفجير " الكاظمية " ؟ أين " التقوى " التي لعلنا " بها " نفلح " ؟ فلسطين بين أنياب كيان صهيوني غاصب محتل ، هذا واضح ، لكن من هذا الفك المفترس الذي لا يشبع من لحم أهل العراق ولا يرتوي من شرب دمائهم ، جرعات وفيرة ؟

يقف المجتمع الدولي / الذي هو الغربي ، مشمئزاً من مبدأ " عقوبة الإعدام " ، وأمامه المذابح للرضع والأطفال تقتلهم القذائف الإسرائيلية وهم نيام ، ولا شئ سوى لوم خفيف ونصائح للقاتل والمقتول بـ " ضبط النفس " !

يغور دونالد رامسفيلد فاراً بجرائمه ضد البشرية ، ويأتي جيتس أكثر شباباً وعنفواناً، ليواصل مشواره ، ويذهب نواب ويجئ آخرون من الحزب المنافس ، لكن لا تخالوا الديمقراطيين أكثر عطفاً علينا ، فإبادتنا هدف لا يختلف عليه الجمهوري والديمقراطي في الإدارة السياسية الفاشستية للولايات المتحدة الأمريكية ، الخلاف بينهما ليس حول مبدأ السيطرة على منطقتنا ، لكنه حول التوقيت والكيفية . لم يتحرج دوايت أيزنهاور منذ عام ١٩٥٧ من الجهر بضرورة أن تملأ أمريكا " الفراغ " الذي نتج عن انحسار الهيمنة البريطانية، كإمبراطورية احتلال – ولا تقولوا استعماراً فهي لم تعمر شيئاً بل خربت كل شئ – بسطت نفوذها على بلاد الإسلام والعرب أكثر من قرنين كاملين .

عام ١٩٥٧ ، هذا الذي يلي عام ١٩٥٦ ووقع فيه العدوان الثلاثي على مصر ثم أوقفه التدخل الأمريكي ، هو العام الذي وضعت فيه أمريكا ، نصب عينيها ، السعي لتحقيق هدفها لتجلس فوق رؤوسنا وقلوبنا – باعتبارنا " فراغاً " – وتنتزع إرادتنا في رسم خريطة "طريقنا". لعبت أمريكا لعبها مع الاتحاد السوفيتي ، شداً وجذباً تحت أبصارنا ،

لشعرة ترخيها لو أحستها صعبة المنال وتشدها بسرعة حين تلين في يد منافسها ، في حرص بالغ ألا تقطع أو تنقطع . وإلى الهدف سار رؤساء أمريكا من بعد أيزنهاور ، وكان من انتصاراتهم تسليم المنطقة ، شعورياً أو لا شعورياً ، بأن أوراق قضيتهم صارت مائة بالمائة في يد أمريكا ! قالها السادات فخوراً باعتبارها حقيقة أزلية لا تقهر وتصرف على أساسها ، كأنه بقوله هذا الخائب قد أحرز انتصاراً يشكر عليه ، وصحيح أن عبد الناصر لم يقلها لكنه تعامل معها بالتواءات عديدة واتفاق ضمني، وتصور شاه إيران أنه جزء من اليد الأمريكية الممسكة ببعض الأوراق، ولم يدرك أنه هو ذاته مجرد ورقة في اليد القابضة على رقبته تكرمشها وتلقي بها متى شاءت، واغتر صدام حسين مثله ونفخ صدره وأبرز كرشه وأطلق الرصاص في الهواء ، الذي حرم على أهل البلاد استنشاقه. جاء المكر الأمريكي بصدام حسين عام ١٩٧٩ ، أو قبلها ربما، وشكله طولاً وعرضاً تماماً على مقياس مصالحه لإنجاز مطالبه ، وتم ذلك بنجاح كامل منقطع النظير ، حرسوه وحافظوا عليه وأحاطوه بحماية جواسيسهم يخبرونه بكل مقاومة يحاول شعبه المظلوم الانتفاضة بها عليه ، ادخاراً لفرصة يقتنصونها لإسقاطه بمعرفتهم يدعون بها "تحريرهم" للعراق وأهل العراق ! وفي نشوة ذلك الانتصار الأمريكي ، " زودها " رامسفيلد "حبتين" وأكثر ، و"عك" فيها غباء بوش أكثر وأكثر ، وحتى لا يتعالى فوقه رامسفيلد ويكثر من المن عليه أدخل كوندوليزا بـــ " طيشها الخناق " في سياقه ، مما أدى إلى أن ينفجر رامسفيلد من

الداخل ويتناثر غير مأسوف عليه من أصدقائه قبل أعدائه ، كأنه قد نال مع " صديقه " صدام ، حكماً بالإعدام " استقالة حتى الموت " !

ليس طريفاً أن نعلم ، بالمناسبة ، أن عقوبة الإعدام كانت من بنود حزب البعث ، توقع على من ينتمي لحزب البعث ثم يتركه ، إذ يعتبره الحزب " مرتداً " ويصدر عليه حكم الإعدام " آلياً " ، من دون أى محاكمة أو حيثيات " قانونية " ، فهو حكم " حزبي " أي "سياسي"، لأن الخروج من الحزب هو " وحده " الحيثيات ، فيالفصاحة " القانونيين " المتحدثين عبر الأقمار الصناعية ومعهم هيئة الدفاع عن صدام حسين . أما الطريف فهو ذلك " الاستبشاع " الدولي – في ظل المذابح للأطفال – للحكم بـــ " الإعدام " على سفاح طاغية مهد لقوات الغزو باحتلال بلاده ، ولم يطلق في مواجهتها ولو رصاصة واحدة في الهواء !

ما الدنيا إلا مسرح كبير ، هكذا قال من قالها ، ويمكن أن نقول بعدها : وما المسرح إلا دنيا صغيرة ، وغالباً دنيا كاذبة ، وأتمنى أن أضرب الأمثلة بعرضين شريرين تم إعادة عرضهما بالقاهرة وهما : "أهلا يا بكوات " و"الناس اللي في التالت " ، ولكن ليس باستطاعتي فعل ذلك حتى " تهدأ " المذابح قليلاً ، ولاحظوا أنني لم أقل حتى " تنتهي " !

اللهم إني بريئة من بيان نقابة الصحفيين المصريين

أكتب بعد صلاة فجر عيد الأضحى ١٠ / ١٢ / ١٤٢٧ هـ ، الموافق ٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٦ ، وقد صحوت على خبر تنفيذ حكم الإعدام شنقاً حتى الموت في صدام حسين ، إحقاقاً لحق الشعب العراقي في أن يشفي الله صدره ويذهب غيظ قلبه ، الذي تم كبته ما يزيد على ربع قرن كامل .

سجل جرائم صدام حسين تحت سمع وبصر العالم ، ولسنا في حاجة إلى سرده ، فهي جرائم من بشاعتها أنها لا تعد ولا تحصى ، أكبرها هروبه يوم زحف قوات الغزو لاحتلال العراق ، وعجزه عن مواجهتها ومقاومتها إلا بكلمات غثة فارغة كان بوقه فيها وزير إعلامه الصحاف ، " يهدد ويتوعد " في دائرة من الخواء والخلاء أمام فضائيات ينتظر جمهور مشاهديها مقاومة ملموسة فعالة بقوات الجيش النظامي والشعبي والحزبي والعلني والمخفي ، من دون أي جدوى ، فالسيد الرئيس مشغول بما هو أهم من تحريك مقاومة " الأشاوس " المنتظرة "

والمأمولة ، والتي كانت قد أبلت بلاءها الفاحش في سحق الشعب العراقي بنجاح ليس له أي نظير في تاريخ البشرية ، سوى سجلات المتوحشين الذين ، وإن سحقوا بشراً وخربوا دياراً ، فهم من غير أهلهم وذويهم .

كان صدام حسين والعراق يستذل بجنود الأعداء وبغداد تلتهم وتستباح بقوات الاحتلال الأمريكي والدولي ، كان فخامته مشغولاً بتبليغ رسائله إلى زوجته وبناته أن : "اهربوا!" ومشغول بسحب أرصدة الشعب العراقي من البنك المركزي ووضعها ، ملايين الدولارات ، في حاويات وقعت في أيدي قوات الاحتلال الأمريكي التي صارت تنفق منها جوائز لمن يسهل لهم القبض على صدام وأعوانه ، تجسيداً للمثل المصري القائل : " من دقنه وافتل له " .

لم تكن هناك " خصومة " بين قيادة جنود الاحتلال الأمريكي وصدام وأعوانه ، لكنها كانت " مخاصمة " بين حليفين فاجأ أحدهما الآخر بالتخلي عنه .

هذا يوم يجب أن تعيد القنوات الفضائية المنصفة عرض أفلام صدام حسين التي تسجل، في جزء منها ، مؤتمر غدره بزملائه يوليو ١٩٧٩ وإعلانه عن خيانتهم وقراره إعدامهم من دون إحم أو دستور لأنه قرار " سياسي " ، والتي تسجل لقطات إذلاله للشعب العراقي بالركل والرفس ، والتي تسجل لقطات ترفه ولهوه هو وعائلته في قصوره

ومزارعه وحدائقه ، ومصافحاته مع دونالد رامسفيلد ، وبقية أصدقائه من الأمريكيين ، الذين زينوا له قتل جيرانه وتلويث النخل والضرع والنهرين حتى يجوع العراقي فلا يجد بلحاً ولا سمكاً ولا ماشية في مراعيه الفسيحة يمكن أن يشرب لبنها أطفاله ويأكل لحمها ، ذلك لأنها مسمومة، بدلاً من عرضه المخجل لأطفال العراق الجوعى والمرضى يتسول لهم الطعام والدواء ، بدعوى مأزق " الحصار الدولي " على العراق ، أنعشوا ذاكرة الأجيال العربية بجرائم هذا المأسوف عليه من عملائه ومرتزقته وكلاب صيده الذين تقاعسوا لحظة سقوط بغداد ويهددون اليوم بإسالة أنهار الدم بالعراق تنفيذاً لتعليمات صدرت عن مقر قيادة المخابرات العراقية تقول : "في حالة سقوط الزعيم الحبيب صدام حسين – لا قدر الله – يتعين على كل خلية محلية من حزب البعث وكل فرقة خاصة من الفدائيين وكل عميل للمخابرات أن يقوموا بتصفية المتعاونين وأن يحرقوا المباني الحكومية والوثائق والقيام بأعمال السلب والنهب وكل ما يمكن أن يؤدي للفوضى العامة ... إن الأمر متروك لكل عضو مستقل بحزب البعث ليجد الوسيلة المناسبة لفتح بوابات الجحيم إذا ما سقطت حكومة صدام " – نقلاً عن مجلة المصور المصرية ١٧ / ١١/ ٢٠٠٦ ص ٢٨ .

من حكمة الله عز وجل أن يعدم صدام حسين بمباركة أمريكية ، فهكذا يهلك الله الظالمين بالظالمين والحمد لله رب العالمين .

أنعشوا الذاكرة التي ترى لحظة إعدام السفاح فتتأسف وتدين ولا تستعيد لحظات الموت الجماعي للشعب العراقي الذي لم يجد في لحظات محنته من يتفهم وجعه ويمد له يد المساندة .

والغريب أن تسارع نقابة الصحفيين المصريين في هذا الصباح المبكر في يوم إجازة العيد ، ببث بيان يدين " إعدام صدام حسين " عبر قناة الجزيرة .

متى اجتمعنا يا نقيب الصحفيين لكي نصوغ هذا البيان ونصوت عليه ؟ كيف تتجرأ على تزوير إرادة الصحفيين المصريين ، وأنا واحدة منهم ، وتفرض عليهم انتماءك الناصري الموالي للجرائم الصدامية ؟ كيف ؟ وأين كانت إدانتك أنت وغيرك يوم كان العراق يذبح ويشنق ويعدم بالمئات والآلاف كل دقيقة على مدار ربع قرن ؟

اللهم يا شاهد غير غائب : أشهدك أني بريئة من هذا التزوير والخداع الذي يجب ألا يمر من دون حساب .

هل تكون أم كلثوم مسئولة عن مرض حب الطغاة؟

" قلبي يكمخ الشاي مثلك يا قوري " ، هذا مطلع أغنية تراثية من أغنيات الشعب العراقي ومعناه : قلبي ، من اشتعاله ، يسوي الشاي مثلك يا إبريق . وقبل أن أكتب "إبريق" كدت أقول " براد " ، فنحن في مصر نسميه " براد شاي " ، نعم : الناس " تسخن الشاي " ونحن " نبرده" ، وأنا أتمنى أن أفلح في تبريد ما يشتعل في قلبي من ألم وحسرة وغيظ بسبب هؤلاء الذين رأوا أنه من " الإنسانية " أن " يبقششوا " على السفاح من جيب الضحايا ، ومادام المثل القائل " كبّب ، سقي ، كُل يا مدهي " لا يزال هو المرشد في لغط المتكلمين فلماذا لا تسود صيحات الصخب المنادية بضرورة عودة المستبد الجزار السفاح بدعوى أنه الدواء الناجع لقهر المحتل الأمريكي الأجنبي ، ولم شمل الأمة وانضباطها في زنزانة الخوف ؟

كأن المستبد الجزار السفاح قد غادرنا ، وكأنه ليس قرين المحتل الأجنبي ، وكأنه ليس الذي مهد له وأفسح له السبيل ليغرس نصله المسموم في الجسد المنهك .

لم يتحول الجلاد إلى ضحية كما تصور البعض ، كلا ، فالذي رصدته أن من سالت دموعهم لحظة القصاص كانوا ينتحبون افتقاداً لـــ " قسوة الجلاد " ، وإعجاباً بثبات الدجال الذي أخذته العزة بالإثم وتزين له ولهم سوء عمله فرآه ورأوه حسناً .

تأملوا معي المعاني التي تغنى بها كبار مطربينا ، وعلى رأسهم أم كلثوم وعبد الوهاب، تأملوا معي أغنية تدور مدلولاتها حول : " لي لذة في ذلتي وخضوعي / وأحب بين يديك سفك دموعي " ، وكانت من أشهر أغنيات أم كلثوم في مطلع القرن العشرين ، وتابعوا القائمة الطويلة والتراث المتراكم من أغنيات وأشعار الحب المتسول الخانع الذي يرفع شعار غناه عبد الوهاب : " أحبه مهما أشوف منه ومهما الناس قالت عنه ... بيظلم فيّ وبحبه وده قاسي عليّ وبحبه ... آه ... آه ... آه ... أنا أحبه " . وحين يخطر ببال مشمئز من هذا الانسحاق أن يقول : " حبك برص " ، يطلع من يعود بعبد الوهاب يرد مؤكداً : " مولاي وروحي في يده / قد ضيعها سلمت يده ... " ، وتزاحمه من تقول : " يا لايمين في الهوى حوشوا الملام عني " .

ولأن أم كلثوم هي قمة الغناء والطرب فقد يجوز لنا أن نحملها مسئولية إشاعة مرض حب الطغاة ، فلقد أبدعت ، من بدايتها إلى نهايتها هي ومؤلفوها وملحنوها في تزكية ذلك الاتجاه المؤدي إلى الابتلاء بحب الظالم ، المفتري ، الوغد ، الذي يمسح بالمغرمين البلاط ويعصرهم ويرميهم في الجردل ، ثم يسعف بهم السقف – بصفتهم رأس عبد – ويملأهم بالعناكب ومع ذلك يغنون خلفها بتناحة : " صعبان علي أقول لك كان والحب زي ما كان وأكتر/ وأفكرك بليالي زمان وأوصف في جنتها وأصور ... أيام ما كنا احنا الاتنين : إنت ظالمني وأنا راااااضي " ! وحين يحاول أحدهم أن يستعين بعبد الوهاب : " إوعى يا قلبي تكون حنيت للي شكيت منه وبكيت .... " ، تأتي أم كلثوم بالحجة : " ... إنت العذاب والضنى والعمر إيه غير دول ؟ " ، ويستسلم القطيع لمصاص الدماء النموذج في أغنية : " ياللي كان يشجيك أنيني كل ما اشكي لك أسايا " ، ومع هذه الاستكانة المروعة ، لهذا الذي يشجيه الأنين ، تصهلل أم كلثوم : " عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك ... " ، وخلفها جماهير السرادقات الذين وقعوا في براثن حب القتلة والسفاحين يواصلون التلذذ بجعير غليظ تبثه الفضائيات عن مهرجانات تأبين "الشهيد" صدام حسين : " كان منايا يطول حنيني للبكا وإنت معايا " !

علي حسن المجيد الملقب بعلي الكيماوي يتفوق على جانكيز

حين قال رئيس وزراء منغوليا ، منذ عامين بالتقريب ، أن جانكيز خان لم يكن حقاً الرجل الشرير الذي هاجمته كتب التاريخ ، وأن منغوليا منذ استقلالها عام ١٩٩٠ ، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، تفكر جدياً في إحياء ذكراه ، بصفته البطل المغوار الذي يستحق منها التكريم ، تعجب البعض من الخبر ومن المنطق ، غير أنني لم أجد فيه أي غرابة ، فإذا كان زماننا هو الزمن الذي يقول فيه علي حسن المجيد ، الملقب بعلي الكيماوي ، وهو ابن عم المقبور صدام حسين ، إنه هو الذي أعطى الأوامر بتدمير آلاف القرى الكردية وأنه يرفض الاعتذار ويقول : " أنا الذي أعطيت الأوامر ، للجيش لتدمير القرى وتهجير الناس منها والجيش كان مسئولاً عن تنفيذ تلك الأوامر ، أنا الذي أعطيت التعليمات له " ، ويصر الكيماوي أنه كان على حق عندما قام بذلك وأنه ليس مديناً بأي اعتذار ، وقد ورد هذا الكلام بجريدة الشرق الأوسط اللندنية ، الإثنين

٢٩ / ١ / ٢٠٠٧ ، وذكرت الجريدة أنه قال : " أنا لا أدافع عن نفسي وأنا لا أعتذر فأنا لم أرتكب أي خطأً " ، وأوردت الجريدة أن هناك وثائق تبين بأن عشرات القرى الكردية قد تم تدميرها كما تم تهجير آلاف العوائل الكردية ، وعزل الأولاد الذين لم يتجاوزوا التاسعة من العمر عن عوائلهم ، وقد كشفت إحدى الوثائق عن تدمير ٢١ قرية في النصف الأول من عام ١٩٨٧ بينما أثبتت وثيقة أخرى تدمير ٣٨ قرية في النصف الثاني من شهر يونيو من ذلك العام ، وجاء في وثيقة ثالثة عثر عليها في الأرشيف العسكري موقعة من قبل لواء في الجيش : " لقد قمنا بتدمير كل القرى بالدبابات " .

إذا كان هذا هو حال زماننا ، مع مبدأ بوش الذي أعلنه أخيراً لجنوده : " احتجز على كيفك واقتل فوراً " ، وبعد ما أوردته عن افتخار علي الكيماوي بإبادته لقرى عراقية في المنطقة الكردية ، كيف يمكن بالله عليكم أن نفتح أعيننا وندين جنكيز خان !

صورة صدام

العراق الآن فى مصائب، نعم، نعم، لكن من الذى أودى به إلى كل هذه الحمم والأعاصير وكسوف الشمس وخسوف القمر؟

رجاء لا تقلبوا صفحة صدام حسين، فهى ليست صفحة، إنها مجلدات لم يعف عليها الزمن ولن تمر أبداً مرور الكرام.

صدام لم يهدم لى بيتاً، ولم يقتل لى ابناً يافعاً مِلت إلى عنقه أقبل مكان ذبحه، وهو فى درج من أدراج مشرحة، ولم أرغم على دفع ثمن رصاصة قتلت لى عزيزاً. ليس بينى وبينه ثأر شخصى، لكن بينى وبينه مكتبة تحوى كتباً امتلأت بصور ضحاياه من علماء المسلمين، باختلاف مذاهبهم، وحكماء الصابئة، وقساوسة الكنائس، ومن فئات الشعب: عرب وتركمان وأكراد وخلافه. بينى وبينه وجع القلب الذى صار مخزناً لآهات مكتومة تكدست ولم تتمكن يوماً من باب خروج إلى فضائية إعلامية تقول لها: أوراق الشجر الزاهية تخفى فوهات الدمار والخراب ... العظام وسحب الروح والعزة.

صدام حسين ليس تاريخاً انتهى يا سادة، إنه ... والخبث الضارب أطنابه إلى مدى لا يمكن لأح... يتكهن بنهايته.

الغلاف: أحمد اللباد



